

يُونُسُ الْأَسْوَدُ



إيهاب رجب الشربيني

رواية

يونس الأسود

إيهاب رجب الشربيني

نسخة الهواتف المحمولة

رقم الإيداع

٤٣١٩ لسنة ٢٠٢٠

غير مسموح بالطباعة والتوزيع الورقي إلا بإذن المؤلف

(١)
بيت المختلط



منذ وقت طويل، وهذا البيت، يزورني في أحلامي كثيرا منذ أن كنت مراهقاً.. أحياناً كنت أحلم أنني أسير بجواره وأنا مرتعب، وتارة أحلم أنني ألعب بجواره وأنا سعيد.. وأحياناً أحلم أنني أسير داخل غرفه الواسعة تعتريني الرهبة.. أجد نفسي في غرفة خالية بها بيانو وحيد.. يعزف عليه

رجل يرتدي ثوب أسود من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.. كانت هذه الأحلام تراودني قبل أن أبلغ العشرين من عمري.. ولم اهتدي إلى مكان هذا المبنى مطلقاً حتى تأكدت أنه مكان من وحي خيالي.

مرت السنين ونسيت الحلم ولكنه تجدد مرة أخرى.. فكان الخوف أقل حدة ولكن الرهبة لا تزال موجودة.. كنت أحلم أنني أمام المبنى أدخل إليه خلسةً، وأتمشى داخله فأجد رجل قصير أسمر البشرة يرتدي جلباباً.. وقبل أن أفزع منه.. فإذا به يفاجئني بفزعه هو من رؤيتي! ويتراجع للخلف مذعوراً فأتراجع أنا بدوري هارباً من الباب!.

مرت سنوات أخرى وتجدد الحلم، فظهر لي المبنى والمكان والرجل الأسمر عدة مرات.. لم يعد الحلم مخيفاً على الإطلاق، بل أصبحت أحب المكان وكلما رأيت الرجل الأسمر أحاول الذهاب نحوه ولكنه يصاب بالذعر ويهرب.

بحثتُ على الإنترنت لعلني أجد المكان أو حتى حل لتلك الظاهرة فلم أفجح في الوصول لشيء،

يبدو كببت إنجليزي قديم.. ولكن أين موقعه؟!

منذ فترة كان فصل الشتاء في ذروته والجو شديد البرودة والضباب يغطي المدينة كلها على غير العادة.. وقبل الفجر بقليل كنت أسير هائماً على وجهي في بعض الشوارع الجانبية لحي (المُخْتَلَط)¹، لا أدري أين أنا؟ وفجأة!.. وجدتُ المبنى أمامي



نظرتُ جيداً.. دعت عيني غير مصدق.. هل أنا أحلم؟! هل أنا تحت تأثير دواء البرد القوي الذي أخذته قبل ساعات؟ أنا واحد من الناس اذا تناولت قرصاً للصداع يكون كفيلاً بأن يجعلني تائهاً عن الدنيا لساعات.. ولكنني مدركٌ جيداً أنني أمام المنزل الذي ظللت أحلم به طوال عمري.. يبدو إنه قديم ومتهالك أكثر مما كان يظهر لي بالحلم ولكنه هو المنزل..

نظرتُ في الشارع الصغير وجدته ساكناً، كأنه لم يسير به مخلوق منذ مئة عام.. ما هذا الهدوء؟

(١) سمي الحي بهذا الاسم لوقوع واحدة من ثلاث محاكم مختلطة بمصر به حتى إلغاءهم عام ١٩٤٩.

اقتربت من البيت أكثر وأكثر ووقفت أمام الباب الصغير وقد تجمد الدم في عروقي وكانت المفاجأة!

وجدت الرجل الأسمر واقفاً بالفعل داخل المبنى.. على عكس المتوقع.. ذهب كل خوف داخلي.. وتملكني الفضول، وشعرت بجرأة وحماس.. يبدو أن الإنسان في أحلامه يكون أكثر خوفاً من الواقع.

ولكن لم يكن ذلك حال الرجل، الذي بمجرد ما أن رأيته، حتى صرخ صرخة مكتومة وكسا الرعب وجهه بشكل أثار شفقتي عليه.. اقتربتُ منه وأمغنت النظر إلى وجهه.. ولكن.. ما هذا الشعر الأبيض الذي يكسو رأسه وما هذه التجاعيد التي تشق وجهه شقاً.. الأمر الذي زاد من شعوري بالشفقة عليه.. فأجلسته على كومة من الأخشاب بأحد جوانب المبنى وقلت له:

- ماذا بك يا رجل هل رأيت عفريتاً؟

- نعم

- كيف ذلك؟!

- منذ سنوات طويلة وأنت تدمر حياتي.. فقلت
في دهشة: أنا؟!

- منذ زمن طويل وأنا لا أستطيع النوم بسببك..
كل ليلة أستيقظ على صوتك وأنت تتمشى بكل
غرفة من غرف البيت.. أحاول التحدث معك فأجذك
وقد اختفيت .. فضحكت وقلت له؟

- إذاً فقد أصبحت أنا العفريت؟! وعلا صوتي
من الضحك فزاد رعبه.. فقامت بتهديته وفتحت
محفظتي لأعطيه بعض المال فرفض.. فقلت:
- تعال معي لنفطر سوياً .

- لا يمكنني الخروج من هنا.
قامت بتهديته مرة أخرى وكان البرد قد تملك
مني والدواء أصابني بدوخة شديدة ولم أعد
أستطيع المقاومة.. فقلت له:

- أنا مضطر للرحيل الآن، لأنني قد أسقط من
الإرهاق.. وأعدك إنني سوف أأتي إليك غداً

خرجت من المكان وأنا غير مصدق ما حدث..
ولكن التعب قد تمكن مني بشكل لم أعهده من
قبل.. وبمجرد خروجي للشارع الرئيسي وجدت

تاكسي فوقفت أمامه فجأة ، فقام السائق بالفرملة
بصوت مسموع وقال :

- ماذا تفعل يا أستاذ؟ هل تريد أن تموت؟

لم أجيبه وركبت في الكرسي الخلفي.. أملت
عنواني وطلبت أن يُنزلني أمام البيت.. لم أفق إلا
وهو يوقظني.. فذهبت إلى شقتي وهرولت نحو
غرفتي وارتفيت على سريري وظللت نائماً لما يقرب
من نصف يوم.



قمت من نومي والتعب لا يزال يسيطر على
جسدي ، والبرد قد تسلل إلى كل أوصالي.. كانت
الساعة الثالثة بعد العصر.. ارتديت ملابس رغب
تعبني الشديد ولكنني أصررت على الخروج..
وركبت سيارتي واتجهت مباشرة إلى نفس مكان
الأمس.

كان الجو صحواً والمكان على خلاف الأمس ،
رغم أنه لا يزال هادئاً ، ولكن به عدداً من الناس..
وبعض الأطفال يلعبون الكرة.. نظرت إلى المبنى
ملكياً وذهبت نحو الباب فوجدته مغلقاً بالطوب.

استغفريت! ماذا حدث هل كنت أحلم؟ وضعت
يدي فوق الطوب وجدته لا يزال مبتلا كأن هذا
الطوب قد وُضع اليوم فقط، تأكدت إنني لم
أكن أحلم وأن ما حدث بالأمس حدث بالفعل.



بالقرب كان بعض الرجال الذين يرتدون قمصان
بيضاء كالتي نراها في أفلام زمان جالسون أمام
مَرَأَب للسيارات وأمامهم سيارة قديمة موديل
الخمسينيات.. كان المشهد غير مألوف ونحن في
القرن الحادي والعشرين، ولكنني لم اُكترث فقد
كان اهتمامي منصباً على معرفة أين ذهب الرجل
الأسمر الذي قابلته بالأمس؟ ذهبت نحوهم وبادرتهم
قائلاً:

- السلام عليكم.. فردوا السلام فقصصت عليهم ما حدث بالأمس.. فنظروا إلى بعضهم البعض.. ثم قال أحدهم:

- لا يوجد بالمنطقة رجل بتلك الأوصاف.. وهذه الأبواب مسدودة منذ أكثر من عام لأن هناك نزاع بين مالك المبنى ومستأجره.

ازدادت حيرتي.. فدعاني أحدهم لشرب الشاي فشكرتهم وذهبت وأنا في حيرة.. وقفت أمام المبنى متعجباً وأنا أفرك وجهي! وشعرت بيد ثرّبت على كتفي، فنظرت خلفي فوجدت سيدة في أواخر الأربعينيات من عمرها، ترتدي عباءة سوداء وبها مسحة من الجمال والوقار، ، وقالت لي:

- هل تسأل عن «علي الأسمر»؟

- لا أعرف اسمه.. وقصصت عليها ما حدث

- هل أنت متأكد مما تقول؟

- بالطبع متأكد.

فجلّست على سلّم أحد البيوت بالشارع وقالت:

- منذ أربعون عاماً كان علي الأسمر يعمل

هنا.. وفي أحد الأيام كان ساهراً خارج البيت.. وعاد في وقت متأخر وقد تغيرت ملامحه وبدأ على وجهه

الخوف.. فسألته زوجته عما به فلم يرد ودخل إلى غرفته لينام.

كانت ابنته تنام على كنبه بالقرب منه وعند الفجر دخلت عليه زوجته فلم تجده.. ومن وقتها وهو مختفي حتى اليوم، فقلت لها:

- ربما يكون قد طَفَسَ، فردَّت بغضب:
- لا.. لقد كان رجلاً متديناً.. وليست لديه مشكلات وكان يحب زوجته وابنته جداً.
- ثم أدمعت عيناها، فَطَيَّبْتُ خاطرهما وتأسفت لها وسألتهما عن سبب بكائها فقالت:
- لأنني ابنته.. وأتذكر يوم اختفاه وكأنه قد حدث بالأمس، حتى أتيت أنت بحكايتك الغريبة هذه.

فأقسمت لها أن كل ما أقوله صحيح.. أثناء حديثي معها نظرتُ للمبنى مرة أخرى وخبط على رأسي خبطة قوية.. يا الله إنني أعرف هذا المبنى جيداً.. وأعرف لماذا كان يأتيني في أحلامي.



إن هذا المبنى خلف مدرستي القديمة ، وأظن أنه جزء من المدرسة وأظن أن هذا المبنى كان به بيانو فعلا كنا نلعب عليه ونحن في الروضة.. بل إنني تذكرت الرجل الذي كان يرتدي السواد من قمة رأسه والذي يعزف على البيانو لقد كان قسُ أراه دوما بالمدرسة.. وكنا نُسلِّم عليه ونحن صغار.. كان رجلاً باسمًا بشوش الوجه.

ياااه كيف لم أتذكر كل ذلك طوال السنوات الماضية؟

لقد ارتحت كثيرا جداً وحللت جزء من اللغز الذي حيرني طوال عمري.. ولكن ما هي حكاية «علي الأسمر»؟ وكيف ظهر لي بالأمس وكيف تحدثنا؟ وكيف ظهرنا في أحلام بعضنا كل تلك المدة؟ وأين اختفى أربعين عاما كاملة؟

سأذهب غداً لابنته لنعمل على حل هذا اللغز معاً.



الست أم بطة

في الصباح الباكر قررت عدم الذهاب إلى عملي لكي أذهب إلى (المُختَلَط) لأقابل السيدة التي قابلتها بالأمس.. وقبل خروجي قمت بتصفح الأخبار، فاستوقفتني خبر حزين عن سيارة نقل بترول انزلقت على الطريق السريع وانفجرت حمولتها أمام بعض السيارات، وتم العثور على جثة سيدة فاضلة وابنتها وقد تفحمت جثتيهما وهما يحتضنان بعضهما.

يا للألم والأسى ما هذه الحوادث القاسية التي لم نكن نراها سوى في أفلام الكوارث؟

وصلت المُختَلَط ودخلت إلى الشارع.. نظرت يمينا ويسارا.. كان هناك أمراً غريباً في الشارع.. لم أشعر أن هذا هو الشارع الذي رأيته بالأمس.. كأنه قد تغير فيه شيء ما ولكن ما هو؟ ..لا أعلم!.

نعم نعم، هناك شيء غريب بالفعل.. المرأب الذي رأيته بالأمس والرجال الجالسون أمامه والسيارة القديمة.. إنه نفس المرأب ونفس الرجال ولكنها

ليست نفس السيارة.. تقف أمام المرأب سيارة (تويوتا
كرولا) موديل حديث.. ولكن لم يكن ذلك ما
لفت انتباهي.. فما لفت انتباهي هم الرجال
أنفسهم.. نظرتُ إلى وجوههم.. نعم هم نفس الرجال
ولكنهم يرتدون ملابس عصرية..



نظرت نحو الرجال مبتسماً وقلت لهم:

- السلام عليكم؟

فردوا السلام ونظروا الناحية الأخرى.. فكررت

السلام مرة أخرى، فردوا باستغراب، فقلت لهم:

- هل تتذكرونني؟ أنا الذي كنت معكم

بالأمس، فقال أحدهم:

- معنا أين؟!

- أنا الذي سألتكم عن البيت، وعن «علي الأسمر».

- هذه المرة الأولى التي أراك فيها!

- حضرتك عزمتمني على تناول الشاي معكم

- بسيطة.. لو الأمر يقتصر على شرب الشاي..

تفضل ولكن هذه هي المرة الأولى التي أراك فيها

بالفعل.. وردد الآخرون نفس كلام زميلهم،

فسألتهم عن السيدة، فقالوا أنهم لا يعرفونها،

سألتهم عن البيت فقالوا:

- ماذا تريد من هذا البيت؟ فحكيت لهم

الحكاية بالتفصيل، فضحكوا جميعا، ثم قال

أحدهم:

- يبدو أنك أيضا تطمح في هذا المنزل فهو

موضع للنزاع ثم أردف قائلا: هل ستشرب معنا

الشاي.. أم ستذهب لحال سبيلك؟

شعرت بالحرص، وذهبت وأنا في قمة الحيرة

متسائلا، ما الذي يحدث؟ هل أصبت بالجنون؟

خرجت إلى ناصية الشارع، وقررت أن أسال كل

من أراه عن «علي الأسمر» وعن ابنته، فلم أجد

رداً، وزادت حيرتي، واقترب مني رجل كبير السن
وجذبني من كتفي ثم همس في أذني قائلاً:

- اذهب إلى جوار مقام «سيدي يونس»، واسأل
عن بيت الست «سعدية».

ذهبت إلى جوار المقام مباشرة .. رغم أنني أعرف
المدينة جيداً وأسمع عن المقام.. ولكنها كانت المرة
الأولى التي أراه فيها.. يبدو للوهلة الأولى أنه مقاماً
عادياً مثل باقي مقامات الريف والمدينة والتي اندثر
معظمها، ولكنني ظللت أتأمله كثيراً حتى نسيت
مؤقتاً مسألة الست سعدية..



فاجأني شاب يقف بجوار المقام:

- هل تريد شيئاً يا أستاذ؟ فالتفتُ له:

- نعم .. اسأل عن بيت الست سعدية

- لا أعرفها.. فقضيت وقتاً في السؤال عنها.. لم

يعرفها أحد، حتى قال أحدهم:

- تقصد بيت «أم بطة»، ودلّني على مكانه..

فذهبت إلى البيت ووجدت نفس الشاب واقفاً بجوار
البيت وقلت له:

- أنت تقف بجوار المنزل الذي ابحت عنه!

- لم تقل أنك تقصد بيت «أم بطة».



وقفت أمام الباب واستأذنت لمقابلة الست «أم

بطة»، فأذن لي زوجها بالدخول.. دَخَلْتُ بصحبة

ابنتها.. فسَلَّمْتُ عليها بحرارة، وسألتها عن أحوالها،

فنظرت لي بريية وبدا أنها لا تعرفني!

ذَكَرْتُهَا بلقائي معها بالأمس، فأنكرت أنها

رأيتني من قبل، وأبلغتني ابنتها أن أمها مصابة بحالة

برد شديدة ولم تخرج من المنزل.. فأصبت بالحيرة

مرة أخرى!

ثم باغثها بالسؤال عن عم «علي الأسمر»، وهنا
تغير وجهها وتبادلت النظرات مع زوجها، ثم قالت:

- ماذا تريد منه؟ فحكيت لها بالتفصيل كيف
قابلتها بالأمس وما حدث مع أبيها، فقالت بعصبية:
- لا بد وأن سيادتك تمزح؟

فنظرتُ إليها بجدية شديدة ووضّح على وجهي
إنني لا امزح، وقلت باستغراب:

- لا افهم! فقالت:
- والدي «علي» رحمة الله عليه.
- مات؟ متى حدث ذلك؟!
- من أربعين سنة!
- كيف وأين؟ .. فردت «أم بطة» بنبرة حزينة:
- اختفى فجأة ونحن نائمون.. استيقظنا من
النوم لم نجده.. وكنت صغيرة.. بحثت عنه أمي في
كل مكان دون جدوى حتى فقدنا الأمل.

ثم سكّنت «أم بطة» ودخلت في نوبة بكاء،
فأخذني زوجها على جنب وقال لي:

- لماذا تعيد عليها الأوجاع؟ لقد ظلت تُعالج
لسنوات طويلة من أثر صدمة أبيها ونسيّت الموضوع

حتى جئت أنت لتقلب المواجع.. فقلت له بلهفة:

- احكي لي بالتفصيل عما حدث.

خرجتُ مع زوجها لنجلس بمقهى على الناصية..
أشعل سيجارة وتحدث قائلاً:

- منذ أربعون عاماً كانت زوجتي طفلة لا يزيد
عمرها عن ثمان سنوات، تمام فوق كنبه بالقرب
من أبيها.. استيقظوا في الصباح ووجدوها تبكي
وقد اختفى والدها.. وظلت تردد:

- أبويا راح مع «سيدي يونس»، أبويا راح مع
«سيدي يونس».

حاول الجميع تهدئتها لكي تتحدث فقالت:

- كنت نائمة بجوار أبي، والظلام يخيم على
الغرفة.. وفجأة شعرت بضوء يخترق عيني..
فاستيقظت ووجدت شمعة مشتعلة.. وهناك رجل
طويل اسود البشرة يرتدي ثوباً أبيض اللون وفوق
رأسه عمامة خضراء وله لحية بالغة الطول.. ويقف
في أحد أركان الغرفة ورأسه ملامسة لسقفها،
فصرخت.. استيقظ أبي على صرختي فرأى المشهد
ففزع.. فقال له الراجل:

- اهدأ يا «علي» أنا سيدك يونس

- «سيدي يونس»؟ صاحب المقام؟

- نعم .. وقد أتيت لآخذك معي.. ثم أمسك بيد أبي وانطفأت الشمعة واختفيا سوياً..

كنت استمع للحديث بانتباه، ولكنني فجأة أفقت وقلت:

- ما هذا الهراء أيها الرجل؟!

- هذا هو ما قالت الفتاة ولم يصدقها أحد.. وقالوا ربما هرب أبوها ورضوا بقضاء الله فيه.. ولكن الفتاة ظلت طوال عمرها مُصرّة على تلك الرواية.. فذهبت بها أمها إلى العديد من الأطباء النفسيين دون جدوى.. كان الجميع يصفونها بالجنون.. ورغم ذلك كان يتقدم لها العديد من العرسان لأنها كانت جميلة.. وأنا كنت أحبها وأريد الزواج بها.. لذا أخبرتها بأنني مصدق لكل كلمة قالتها.. ولهذا شعرت بالراحة معي وتزوجتها رغم أنني بداخلي لم أكن مصدقاً لادعاءاتها في طفولتها.. ولكن الشهادة لله منذ تزوجت هذه السيدة قبل خمسة وعشرين عاماً وهي نعم الزوجة فلم تكذب عليّ قط.. ونالت من ثقتي ما جعلني

أحدثك الآن وأنا مصدق لكل كلمة قالتها عما
حدث مع أبيها.. وهنا نظرتُ للأسفل وقلت لنفسي
بصوت خفيض:

- بعد كل ما رأيته يبدو أنني أيضاً
سأصدقها.



قررت التَّقَصِّي عن حكاية «سيدي يونس» هذا..
فسألت الناس بالشارع عنه، فكانت أجوبة
معظمهم تَتَم عن عدم معرفة.. بل إن بعضهم سخر
من المقامات والأولياء وطالب بإزالتها جميعاً.

ذهبتُ لمقابلة الطُّرق الصُّوفية في طنطا، وعَرَّجْتُ
على دار الكتب ودار الوثائق القومية بالقاهرة
أَتَلَمَّس معلومات عنه، فلم أجد إلا القليل، حتى
مللت وقررت ترك الأمر كله، وعدت إلى مدينتي،
وفي تلك الليلة نمت وأنا في قمة التعب فرادوني حُلماً
أصابني بالرعب الشديد.

لقد حلمتُ بنفس ما حكته البنت الصغيرة
بالضبط.. الغرفة المظلمة و الشمعة المضيئة والشيخ
«يونس الأسود»، ولكن ما أُرعبني إنني رأيت نفسي

مكان هذه الطفلة ، كما لو أن الموقف قد حدث لي أنا ، وكان النائم بجواري أمي.. قمت من نومي عند الفجر مفزوعاً ، وأنا أصرخ صرخة مكتومة: ماما.. ماما.. ؟ صرحتُ وأنا مفزوع أمي فين .. أمي فين؟

بعد لحظات أفقت من أوهامي وتذكرت أن والدتي رحمة الله عليها توفيت من عشر سنوات.

يا الله.. لقد توقفت عن الحلم ببيت المختلط وعلي الأسمر ولكنني الآن أحلم حلمًا مربعاً حقاً في نفس البيت.. ولكن هذه المرة «سيدي يونس» وأمي! أمر مخيف حقاً.

في اليوم التالي تصفحتُ الأخبار وفوجئت بخبر محزن عن انفجار قطار واشتعال النار بشكل شنيع في رواد المحطة ، وشاهدت فيديوهات مؤلمة عن الحادثة الأليمة جعلتني أزيد حزناً على أحزاني.



في المساء جلست على المقهى مع الأستاذ («جباب»).. أحد أصدقائي الذي يملك مكتبة وداراً

للنشر كانت مشهورة فيما مضى.. تأوهتُ وحكيت
لصديقي عن مسألة حلمي الأخير وعن «يونس»
كان ينصت باهتمام، وفجأة وقف وقال لي:

- قم معي

- إلى أين؟

ذهبنا إلى مكتبته التي أراها للمرة الأولى.. تقع
تحت بيت قديم بأحد شوارع المدينة.. الكتب على
الرفوف بالمئات بخلاف مئات أخرى على أرض
المكتبة، رغم اتساعها لا أرى بها أي زبون.

أخذني إلى باب صغير في نهايتها، اعتقدتُ أنه
باب حمام.. كان الظلام حالكا، فقممت بإضاءة
الهاتف المحمول.. فطلب الأستاذ «حبّاب» إطفاءه
ريثما نغلق الباب.. أطفأته ثم نزلنا عدة درجات إلى
الأسفل، فأغلق الباب، ثم قام بفتح باب آخر أصغر
تصُغِب ملاحظته، اعتقدت إنه باب صندوق، حتى
أنني اضطررت إلى النزول على ركبتي لأمر منه،
وبعد دخولنا وجدت نفسي داخل غرفة صغيرة مليئة
بالكتب القديمة والمخطوطات وبعض الأنتيكات.
استغربت لهذا المشهد الذي لا أراه سوى في أفلام

الغموض ، وتعجبت كيف يكون موجود بمدينةنتا الصغيرة الصاخبة؟ وهنا قال لي:

- أنت أحد القلائل الذين دخلوا إلى هنا.. لعلك تعلم أن مكتبة مدينةنتا الرئيسية كان بها أكثر من ألف مخطوط نادر.. فقدنا بعضهم واحترق البعض الآخر في أحداث يناير.. وأنا لدي هنا جزء من هذا التراث النادر لا يقدره أحد.

ثم ذهب إلى ركن وفتح دَرَفَة صغيرة في حجم غطاء علبة الأحذية ، وأخرج كتاب مخطوط عنوانه مكتوب بخط اليد ، لونه أصفر من فرط قدمه ، نفض بعض الأتربة التي تكسوه ، ثم ناولني إياه.. جذبني عنوانه المكتوب بريشة حبر أسود ، وقرأته بشغف: «سيدي يونس الأسود»

فتحت أول صفحة.. اتسعت عيني واعتراني الرعب مرة أخرى.. كان مرسوماً عليها بدقة شديدة صورة لرجل ، إنه هو!! هو تماماً.. إنه من رأيته في منامي.. إنه «يونس الأسود».

يونس العبد

أصابتنى تلك الصورة بالهلع، فكيف يظهر لي شخص بالمنام ثم أرى صورته في اليوم التالي؟! لقد بدأت أخشى مواجهة مصير على الأسمر.. يبدو أن هناك صلة بين بيت (المُختَلَط) والشيخ «يونس الأسود».

استأذنت صديقي في أخذ الكتاب معي لأقرأه بالبيت، فقال:

- أنت تعلم محبتك فهي عندي أهم من الكتاب، ولكن أنا أخاف عليك من خروج هذا الكتاب من المكتبة.. اقرأه هنا، لأن وجوده معك في البيت يمثل خطورة عليك.

- كيف ذلك؟

- ستعرف فيما بعد.



في المكتبة الصغيرة جلست على مقعد، وبدأت في القراءة، كانت تتسع عيني من الدهشة وأنا أقرأ صفحات الكتاب، فظللت أقرأ لساعات حتى

تعبت، ثم استأذنت للرحيل وذهبت إلى بيتي.. في تلك الليلة حلمت بكل ما قرأته في الكتاب.



رأيت جمال تسير في صحاري الصعيد،
يركب فوق إحداها رجل سمين، ويتدلى من الجمل
حبل طويل مربوط به عدداً من الأطفال الصغار
سمر البشرة، لا تزيد أعمارهم عن عشر سنوات،
كان الأطفال منهكين من التعب والسير على
أقدامهم، حفاة وعراة في جو الصعيد القاطئ،
بعضهم يبكي من التعب والألم، فقد كانت
أيديهم مربوطة في الحبال، وصلت الجمال إلى
أشهر سوق للعبيد بمصر وكان بمدينة أسيوط..
قال الرجل السمين للنَّحَّاسُ الذي يبيع العبيد:

- لقد أتيت لك ببعض العبيد الصغار صحتهم
أقوى من الثيران.. فسأله النَّحَّاسُ:

- قل لي يا جلاب العبيد؟ هل قمت بخطفهم
من سنار في بلاد السودان؟

- لا تسأل كثيراً، لك فقط أن تأخذهم وأنت
صامت.. وقبض منه ثمن الأولاد وانصرف..

ثم تَكُومُ الأطفال في ركن وهم يبكون..

فَنَزَلَ عَلَيْهِمْ صَبِي النَّخَّاسُ بِكَرْبَاجٍ فِي يَدِهِ حَتَّى
يَسْكُتُوا ، فَسَكُتُوا جَمِيعًا إِلَّا طِفْلَ مِنْهُمْ جَذَبَ
الْكَرْبَاجَ مِنْ صَبِي النَّخَّاسِ وَقَامَ بِضَرْبِهِ بِهِ..
فَتَكَالَبَ عَلَيْهِ صَبِيَّانِ النَّخَّاسِ وَأَوْسَعُوهُ ضَرْبًا ،
فَجَاءَ النَّخَّاسُ وَأَمْسَكَ بِأُذُنِ الصَّبِيِّ الَّذِي كَانَ
عَمْرُهُ لَا يَزِيدُ عَنْ تِسْعَةِ أَعْوَامٍ وَقَالَ لَهُ : مَا اسْمُكَ يَا
وَلَدُ؟ فَلَمْ يَرُدْ فَقَالَ النَّخَّاسُ :

- مِنْ الْيَوْمِ اسْمُكَ يُونُسُ.. أَنْتَ شَرَسٌ ، وَسَتَبَاعُ
بِسَعْرِ جَيِّدٍ.

تَكُونُ يُونُسَ بِجَوَارِ زَمَلَائِهِ لِيَنَامَ بِجَوَارِ جِدَارِ
عَارِيَا لَا تَسْتَرُهُ أَيْةُ مَلَابِسٍ ، وَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ نَزَلَتْ
دُمُوعُهُ وَهُوَ يَتَذَكَّرُ لَعْبَهُ مَعَ أَخُوْتِهِ فِي الْغَابَةِ بِجَوَارِ
قَرِيَّتِهِمْ وَهُمْ فِي غَايَةِ السَّعَادَةِ ، ثُمَّ هَجَمَ بَعْضُ
الْعَرَبِيَّانِ عَلَيْهِمْ وَاخْتَطَفَاهُمَا لِبَيْعِهِمْ كَعَبِيدَ.. فِي تِلْكَ
الْأَيَّامِ كَانَتْ تِجَارَةُ الْعَبِيدِ رَاجِحَةً بَيْنَ سَنَارٍ وَأَسْيُوطٍ.

وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ جَاءَ مَمْلُوكٌ لِيَشْتَرِيَ بَعْضَ الْعَبِيدِ
لِحِسَابِ أَحَدِ الْبُكَوَاتِ الْأَتْرَاقِ فِي الْمَنْصُورَةِ..
فَعَرَضَ عَلَيْهِ النَّخَّاسُ الطِّفْلَ يُونُسَ وَمَدَحَ فِي قُوَّتِهِ
وَذَكَاءِهِ ، فَاشْتَرَاهُ ، ثُمَّ وَضَعَهُ فِي مَرْكَبٍ سَارَتْ بِهِ

في النيل لمدة أسبوع حتى وصلت إلى مشارف
المنصورة، التي ما إن رآها يونس حتى شعر بقلبه
ينشرح لتلك البلدة بعدما رآه من معاناة شديدة في
الشهور الماضية 

استيقظتُ في الصباح الباكر وأنا متعجب لأن
كل ما قرأته في الكتاب حلت به بالأمس،
وشعرت بالمعاناة التي عاشها هؤلاء الأطفال وكأنها
حدثت أمامي بالفعل.. إنه مشهد يدمي القلب.

رن جرس التليفون وأنا أتناول فطوري.. كان
المتحدث زوج «أم بطة»، الذي تكلم بصوت يسيطر
عليه الهلع:

- الحقني .. «أم بطة» اختفت.

- اختفت؟ كيف ذلك؟

- مثل أبيها.

ونحن في مقر قسم ثان للإبلاغ عن اختفائها،
كان الضابط يحاور ابنتها بطة:

- احكي لي ما حدث بالضبط.. فقالت:

- بعد العشاء رأيت أمي تسير في الشارع تجاه

مزلقان السكة الحديد فسألتها إلى أين تذهب؟

فلم ترد علي .. سرت وراءها لأرى أين ستذهب.
فوجدتها وقد دخلت الشارع بجوار مدرسة البنات،
كان الشارع خالياً من المارة فخفت عليها،
وأمسكت بها، فدفعت يدي بعيداً وذهبت ناحية
بيت مهجور، كثيراً ما سمعنا عنه حكايات
مخيفة.

قلت لها: انتظري يا أمي إلى أين تذهبين؟ فلم ترد
ودخلت البيت، وأنا من خوفي وقفت بالخارج.. فجأة
رأيت رجلاً أسمر البشرة.. كثيف اللحية.. طويل
القامة لدرجة أن رأسه تصل إلى السقف.. قام
بإمساك يد أمي.. ثم اختفيا سوياً.. وفي تلك اللحظة
غبتُ عن الوعي.

فنظر الضابط نحوي وقال:
بالذمة هل هذا كلام يُكتب
في محضر شرطة؟!

لم أجد جواباً، وخرجت
من القسم، فجذب انتباهي
صوت أحد العاملين بالقسم
يقول لزميله:



- هذا البيت حكايته حكاية.. كل فترة تحدث به واقعة أغرب من سابقتها.

زادت حيرتي وأنا أفكر فيما حدث معي ببيت المُخْتَلَط وحكاية «علي الأسمر»، والآن على بعد خطوات من هذا البيت تختفي ابنته في بيت آخر! ما سر البيوت المهجورة في تلك المنطقة؟ ولماذا يحدث لي ذلك؟ وبينما كنت مستغرقاً في حيرتي، اذا ببطة تحدثني باكية:

- أنت السبب فيما حدث لنا .. لقد كانت أُمي تعيش معنا في أمان حتى جئت أنت لتبعثر حياتنا.. شعرتُ بالأسى وتأسفت لها، وقلت:

- لم أكن اعلم أن كل هذا سيحدث.. وأعدك بأنني سوف أعيد أمك مهما كلفني الأمر.

كانت «بطة» واسمها الحقيقي فاطمة، فتاة بضة، ناضرة، وجهها أقرب إلى الاستدارة، بشرتها بيضاء وقمحية في آن واحد، تَخَرَّجَت هذا العام من قسم علم النفس بكلية الآداب.. عندما رأيتها تذكرت زبيدة ثروت.. واحدة من أجمل جميلات السينما المصرية.



شعرتُ بالمسؤولية عما حدث لأُم بطة.. في المساء
كنتُ في الغرفة السرية بمكتبة الأستاذ «حَبَّاب»
مصمماً على إنهاء قراءة كتاب «يونس الأسود» في
أسرع وقت. فتحت الكتاب، ثم باشرت في القراءة:



📖 عمل يونس خادماً في بيت أحد بكوات الأتراك، فكان يُكَلَّفُ بأعمال بالغة المشقة لا تتناسب مع طفولته البريئة، فينظف زرائب الخيول والبهاائم، وينقل أجولة القمح، ثم يرتقى في نهاية اليوم لينام في ركن بالإسطبل، وهو في غاية التعب، كانت معاملة العبيد بالغة السوء تخلو من أي رحمة، لا تمر عليه ليلة إلا وهو يفكر في أمه وأخوته ولهوه في الغابات، فتتزل دمة ألم من عينه.

صحا في أحد الأيام على ضجيج وصراخ، فجرى ليعرف ماذا حدث؟ فوجدهم يعلقون أحد زملاءه العبيد فوق شجرة سدر^١، والناس مجتمعين حوله، فسألهم عما يحدث فقال أحدهم:

- العبد سيُجلد لأن البك التركي، اتهمه بسرقة جوال قمح.

كان العبد المقيد لا يزيد عمره على خمسة عشر عاماً ويصرخ أنه لم يسرق، وأن أحد اتباع البيك هو الذي سرق الجوال.. ولكن هيهات، فاقترب منه البيك وقال له:

(١) شجر النبق وواحدته سدره وهو نبات طيب الرائحة يوضع في الماء عند الغسل

- اسكت يا خرسيس.. سٲجلد وتذهب لتحضر
الجوال.

وبداً جلد العبد الذي كانت تتوالى صرخاته
وشكواه من الظلم وطلب من البيك التركي أن
يحقق بنفسه في الأمر.. ولكن بالنهاية بدا أن قواه
قد خارت، فصاح قائلاً:

- سأقول عن مكان الجوال.. فاقترب منه
البيك وقال له:
- قل أين؟

وفي تلك اللحظة رفع العبد المربوط.. قدمه وبكل
قوته ضرب أنف التركي ضربة شديدة.. جعلت
بعض أسنانه تتساقط، وأنفه ينزف ويتدلى
مكسوراً وعلا صراخه من شدة الألم.

بعد أيام قليلة، رأى يونس أبشع منظر فقد أمر
البيك التركي بإعدام العبد بالخازوق المدبب.. وهو
رُمح طويل من الخشب فقام أعوان البيك بربط
العبد فوق شجرة بحبل وأمسك بعضهم بطرفه
الآخر ثم انزلوا العبد ببطء فوق هذا الخازوق ليتألم
آلام عظيمة جعلت الناس من أهل المدينة يتوسلون

للبك أن يرحمه من العذاب ويسرع بقتله ، ولكنه
رفض.

ظلّ الجميع يراقبون بحسرة ، الخازوق وهو يخترق
أحشاء العبد الصغير فالبك التركي قد أحضر من
القاهرة جُلاّد مملوكي محترف ليضمن تعذيب
العبد لأطول وقت وبطريقة تجعل الخازوق لا يمس
قلبه أو كبده فيموت سريعاً.. في الساعات الأولى
كانت الدماء تخرج من مؤخرته ، وبعد ذلك ظهر
سِنّ الخازوق من كتفه ، وهو حي يتأوه ، وسط
حَوْقَلَة^١ الجميع ودموع بعضهم.

في الوقت الذي بدأ فيه الملل يتسرب إلى نفوس
الجموع التي أخذت في الانصراف.. كان يونس
واقفاً أمام زميله يبكي بحرقة.. فالتقت عيناهما..
فنظر إليه زميله نظرة استعطاف ، وبدون تفكير
جرى يونس نحوه.. ولكن هجم عليه اثنان من
مماليك البيك التركي وأوسعاه ضرباً فتكّوّم على
الأرض يراقب زميله حتى صباح اليوم التالي ، وهو
يموت ببطء.

(١) اخْتَزَالَ لِبَارَةِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللّٰهِ.

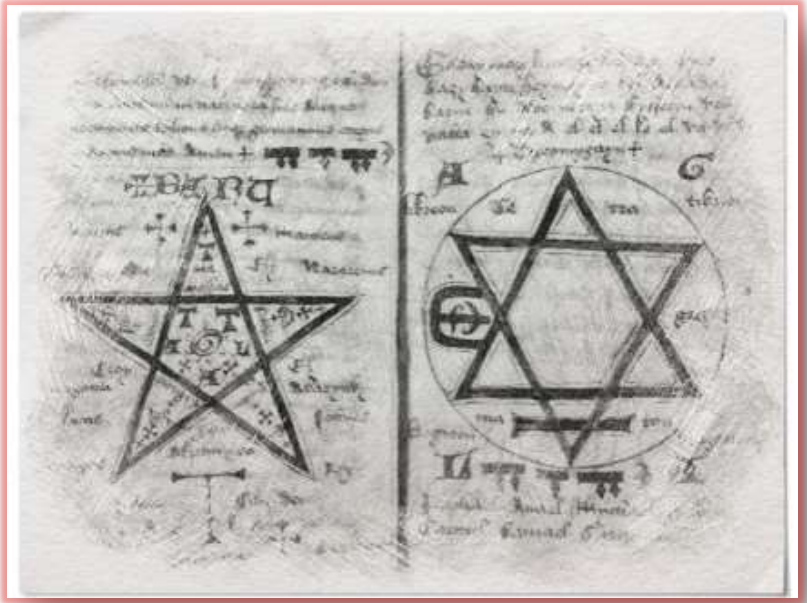
مع اقتراب ظهيرة اليوم التالي.. كان العبد الصغير قد أسلم الروح لبارئها فذهب يونس نحوه واحتضنه.. وقد أظلمت الدنيا في وجهه.. وشعر بالكراهية تجاه كل البشر.. وفي تلك الأثناء كان يقف خلفه رجل ذو ملامح هندية يرت على كتفه قائلاً:

- لا تقلق فرج الله قريب.. تعال معي.

فقد كان بالمدينة جاليات هندية ويهودية عُرف عن بعضهم أنهم يعملون بالسحر الأسود .

(٤)

حَوْش الهنود



اكتفيت اليوم من القراءة في حكاية «يونس الأسود»، وخرجت من المكتبة في الواحدة بعد منتصف الليل، وكان صاحبها مشكوراً قد أعطانني مفتاحها لأغلقها، سرت في طريقي وأنا افكر في تلك الوحشية غير المبررة تجاه طفل صغير لا حول له ولا قوة، ليتم تعذيبه بهذا الشكل.. ما هؤلاء البشر؟!

وبينما كنت أسير في الشارع الخالي.. انتهت لوجود شخص خلفي.. بدا أنه يراقبني.. نظرت نحوه

وحاولت تفحص وجهه ولكن لم أتبينه في الظلام..
كان يرتدي ملابس تشبه ملابس المخبرين، ربما
يكون مخبر من القسم.. سرت في طريقي غير
مكترث.

في الصباح كنت أتصفح الأخبار، فقرأت خبراً
عن رجل اشتم رائحة غاز في بدروم بيته فنزل
وعائلته لاستطلاع الأمر، وبمجرد ضغطه على
مفتاح الإضاءة، انفجر البدروم، وعانت العائلة
طويلاً قبل أن يتوفاهم الله.. يا للهول! ما هذه
الأخبار المؤلمة!

وقفت بجوار نافذتي ونظرت نحو الشارع،
فوجدت رجل الأمس ينظر نحو شقتي، فاستغربت
الأمر.

اليوم.. قررت الذهاب إلى البيت الذي اختفت فيه
«أم بطة»، لأستطلع أمرها بنفسي، فذهبت مبكراً
بعد صلاة المغرب لتكون المدينة لاتزال مستيقظة
ومزدحمة.

ولكن مع اقترابي من الشارع لاحظت أن المطر
بدأ يتساقط وعند وصولي للبيت المهجور كانت

تهطل بغزارة، وبدا الشارع خالياً تماماً.. شعرت ببعض الرهبة ولكنني تشجعت واقتربت من باب البيت.. وفجأة سمعت صوت رعد وبرق وانقطعت الكهرباء، وأصبح الظلام دامساً.. ضرب البرق مرة أخرى فظهر أمامي الرجل الذي كان يراقبني.

كان الغضب بادياً على وجهه، وبدون مقدمات أسرع نحوى، وتبينت في يده ساطوراً كبيراً.. حاولت أن أجري بعيداً ولكن جسدي الثقيل لم يسمح لي بالركض السريع، فدلقت إلى نفس الباب الذي اختفت فيه «أم بطة».. وركضت داخل البيت الذي شعرت أنه طويل للغاية ولا ينتهي.. احترت كيف يكون البيت بهذا العمق اللانهائي.. نظرتُ ورائي فوجدت الرجل خلفي ويهم برفع الساطور.. يريد أن يهوي به فوق رأسي.. في نفس اللحظة التي رفعت فيها يدي محاولاً اتقاء الضربة ومع صوت الرعد والبرق أضيئ المنزل كله.. فشاهدته واقفاً بمنظره المهيب أمامي.. تماماً كما رأيته في أحلامي.. إنه «سيدي يونس الأسود».

كان منتصباً بجسده العملاق ولحيته الكثيفة،
ورأسه تلاصق السقف المرتفع.. تجمدت مكاني
وكذلك فعل الرجل الذي هاجمني، وفي تلك
اللحظة كان «سيدي يونس» يمد يده نحوي،
فتذكرت كل من اختفوا وتأكدت أنه مصيري أنا
أيضاً، فاستدرت بسرعة إلى الخلف ولم أشعر إلا
ورأسي تخبط بعنف في أنف الرجل فسقطت مغشياً
عليّ.

بدأت استفيق، آاه.. يا له من صداد شديد..
رؤيتي مشوشة.. ولدي رغبة في الغثيان، إنها أعراض
ارتجاج المخ، لقد كانت خبطة شديدة.. لا أدري
كيف ارتطمت رأسي بأنف هذا الرجل بتلك القوة..
لا أرى جيداً من أثر الخبطة، ولكنني تحسست
خيوط ضوء النهار تشق البيت برفق.. نظرت أمامي
فرأيت بعض الدماء على الأرضية، يبدو إنها دماء
الرجل الذي ارتطمت به، ويبدو أيضاً إنه هرب لأن
نقاط الدماء في أرضية البيت تشير إلى ذلك.

لقد قضيت معظم الليل مغشياً عليّ في البيت..
وقفت بصعوبة شديدة استند على الجدران.. وعند

مدخل البيت وجدتُ شابين، يبدو من هيئتهما أنهما مدمنين، كانا يترنحان، فابتسم أحدهما ببلاهة وقال لي:

- يبدو أنك كنت تتعاطى صنفاً عالياً !

خرجتُ من الشارع في حالة يُرثى لها.. شاهدت طالبات المدارس تسرن في الشارع وهن ينظرن باستغراب إلى شكلي المزرى.. استوقفت أول تاكسي قابلني.. وأثناء ركوبي قلت للسائق:

- من الغريب أن الشوارع جافة رغم المطر الشديد بالأمس؟

- أي مطر؟ لم تمطر السماء بالأمس.. وأكّدت على كلامه سيدة تركب بالكرسي الخلفي..

خرجتُ من عيادة الطبيب الذي أبلغني بأنني أصبت بارتجاج خفيف ولكنه طمأنني.. وأكد على ضرورة الراحة التامة بالمنزل.

في البيت، سمعت أصوات أطفال تلهو في الصلاة.. خرجت لأتبين الأمر فلم أجد أحد، فأنا أعيش وحدي.. يبدو أن الخبطة أصابتني بالهلوسة.

لم أشعر بالراحة لجلوسي بالمنزل.. فلا بد أن
أسرع الخطى نحو المكتبة لأكمل قراءة كتاب
يونس الأسود. وبينما كنت أفكر رن جرس الهاتف
وكانت المتحدثة «بطة»، فشعرت بكثير من
السرور وفتحت الخط فبادرتني:

- حمداً لله على سلامتك، لقد عرفت ما حدث
معك اليوم.

- الله يسلمك، تخيلي يا «بطة» لقد رأيته وجهاً
لوجه .. تماماً كما وصفتيه.

- الحمد لله.. لقد كنت أخشى أن أكون قد
أصبت بالجنون. فأردت مجاملتها وقلت: ما عاش من
يقول ذلك.

ضَحَكْتُ ضحكة لطيفة، ولكنها سرعان ما
تذكرت ما حدث لوالدتها فصمتت حزناً.. في تلك
الليلة تحدثنا عن أمها طويلاً، وتضاعف شعوري
بالمسؤولية عما حدث لها.

بعد أن أغلقت السماعة ظللت أفكر في تلك
الفتاة التي تمتلك سحر خاص.. أراها كمزيج من
بطلات السينما المصرية في الزمن الجميل والحالي،

فهي تمتلك وجه زبيدة ثروت، وطلة هنا الزاهد،
وحضور ياسمين صبري.. اتكأت على الكرسي،
وتتهدتُ قائلاً: يا سلااام يا «بطة»!.. في تلك اللحظة
شعرت بخبطة الصداع تضرب رأسي، فأفقت
وتذكرت فارق السن بيني وبينها.

في اليوم التالي ذهبت إلى المكتبة، دون أن أُلقي
السلام على الأستاذ ««حباب»» صاحب المكتبة
واتجهت مباشرة نحو الغرفة الصغيرة، فضحك
الرجل لاستعجالي.. دخلت الغرفة، وفتحت الدُرْفَةَ ،
وأخرجت الكتاب ونظرت إلى الغلاف، ثم إلى
الصورة التي على الصفحة الثانية، ولكنني لاحظت
أمرأ غريباً!

لقد تغيرت تعبيرات وجه الشيخ «يونس»! لقد
كان جاداً في الصورة الماضية ولكنه اليوم وفي
نفس الصورة، يبدو كأنه ينظر إليّ وهو يضحك
ضحكة كبيرة مأكرة! ما هذا؟ لقد كانت
الصورة بالأمس بدون هذه الضحكة.. يا لها من
ألاعيب! قلبت الصفحة وأنا أشعر بالقلق وبدأت في
إكمال القراءة في كتاب «سيدي يونس»:

📖 سار «يونس» مع الهندي بهدوء في ظلام المدينة الحالك حتى وصلا إلى أحد حواري (ميت حدر^١)، وكان للجالية الهندية حَوْش بهذا الحي به بضعة بيوت صغيرة، ودخلا إلى أحد بيوت هذا الحوش.

اخترقت رائحة بخور قوية ونفاذة أنف يونس الذي وجد بعض الرجال ذي اللُحَى الطويلة يجلسون بطريقة معينة في صحن البيت وسط شموع موقدة، لقد رسموا على الأرض شكل النُجْمة السُداسيّة وجلس على كل طرف منها رجل يحمل شمعة. فسأل يونس الهندي عما يفعلونه، فقال له:

- ستعرف فيما بعد.. ألا تريد أن تتخلص من الشر؟

فرد «يونس» بشغف: بالطبع
- إذا نفذ ما سنقوله لك .

جلس يونس في وسط تلك النُجْمة ثم بدأ الرجال في القراءة حوله باللغة الهندية القديمة 📖



(١) أحد الأحياء العريقة بمدينة المنصورة، كان بالماضي قرية صغيرة على أطرافها.

في الصفحة التالية للكتاب، وجدتُ رسمة لتلك النُّجْمة وحولها كلام مكتوب بلغة غريبة لم أتبينها، توقفت عن القراءة وقلت لنفسي إنني أعرف هذه النُّجْمة جيداً، إنها نُجْمة داوود التي ترمز إلى إسرائيل، ولكن لماذا توجد في هذا الكتاب القديم وما علاقتها بالهنود؟

اكتفيت بالقراءة اليوم وأنا افكر في أمر تلك النُّجْمة.. وفي العصر تحدثت مع «بطة» هاتفياً.. وحكيت لها كل شيء عن كتاب يونس الأسود وما قرأته به.. كانت تستمع باهتمام.. ثم حدثتني عن ظاهرة الإيحاء في علم النفس، وأنها قدرة لدى بعض البشر تُمكنهم من فرض ما يريدونه على الموحى إليه، لذلك فأهل الدجل والشعوذة من أكثر الناس قدرة على التأثير على الناس.

كنت أنصت باهتمام حين قالت:

- لذلك.. كتاب «سيدي يونس» يؤثر بك ويوجهك كما يريد.. كما أن ظروف قراءته في مكان غامض تزيد من تأثرك.. فأردفت قائلاً:
- تفسيرك مقنع.

لقد أعجبني تفسيرها العلمي وأردفتُ:

- أنت مثقفة بالفعل يا «بطة».

فضحكت ضحكتها اللطيفة، وقالت:

- أنا أقول ما درسته في علم النفس

- لكن بما تفسري ظهور «يونس الأسود» الذي

رأيناه جميعا ؟

فقالت في حيرة : لا أعلم

أكملنا المحادثة.. وخلالها كنت أفتش عن أي

طرفة لأقولها، حتى تضحك ضحكتها اللطيفة

الساحرة التي كانت تسعدني.

في المساء كنت أجلس بمقهى (أندريا)^١ أحكي

لأحد زملائي، عن نجمة داوود الموجودة بالكتاب،

فقال فجأة:

- قُم معي.

سيرنا نحو حي «الحوار»^٢ حتى وصلنا إلى ميدان

«سيدي ياسين»^٣.. تركنا الميدان ودخلنا إلى أحد

الشوارع.. توقفنا أمام ضريح صغير مررت كثيراً

بجواره دون أن أعيره اهتماماً.. أشار صديقي فوق

شباك المقام وقال:

(١) أقدم مقاهي مدينة المنصورة على النيل، أنشأها الخواجة اليوناني كوستاسيوس أندريا عام ١٩٠٦.

(٢) أحد أحياء المدينة العريقة سمي باسم أحد المشايخ القدامى.

(٣) سمي باسم أحد أولياء المدينة، لقب بسنحوق الأوليا، أصوله مغربية، كان يقام له مولدٌ سنوياً.

- أنظر هنا.

نظرت فوق شباييك المقام فوجدت طاقة صغيرة
عليها نَجْمة داوود.. أخذتني الدهشة.. قرأت اللوحة
المكتوبة فوق المقام:
هذا مقام سيدي «علي أبو زيد»



أليست هذه النَجْمة رمز للديانة اليهودية؟ فكيف
يتم وضعها فوق مقام إسلامي؟! لا بد وان هناك سر
في هذا الأمر.. وبينما أنا في دهشتي قال صديقي:
- هناك أكثر من مسجد ومقام في مدينتنا فوق
نوافذه هذه الطاقات الغريبة ولكنها جميعاً مساجد
ومقامات قديمة.

قلت لنفسي: لا بد من كشف سر تلك النّجمة
اليهودية فوق مساجدنا.

في المساء سمعت صوت الملاعق تصطك في
مطبخي فذهبت لأتبين الأمر فلم أجد شيئاً وبدأت
أشعر بالريبة!

نمت وقد قضيت معظم الليل بين الكوابيس
والأحلام التي جعلتني أستيقظ في الصباح التالي
وأنا أعاني من تعب بدني ونفسي واضح.



حَوْش الصيادين

تملّكني الشغف لكشف سر نجمة داوود
الموجودة على مساجد مدينتنا.. فذهبت إلى المكتبة
في المساء لإكمال قراءة حكاية «يونس الأسود»..
فتحتُ الكتاب وشرعت في القراءة مرة أخرى :

📖 لم يفهم «يونس» ما فعله الهنود معه في تلك
الليلة.. وغادر إلى بيت سيّده.. وفي الطريق قابله رجل
يراه لأول مرة ويخفي وجهه وراء كُوفية، استوقفه
قائلاً:

- هيا يا «يونس» لنكمل طقوسنا.

مشي «يونس» معه دون أن ينبسَ ببنتِ شفة.. سارا
مسافة طويلة حتى وصلا إلى حارة الصيادين.. وفي
أحد أحواش الحارة دخلا إلى بيت لا يظهر منه سوى
بابه.. في البيت رأى النّجمة السّداسيّة مرة أخرى
على الأرض.. ولكن هذه المرة، وجد فوقها عظاماً
حيوانية مغطاة بالدماء.. لم يتبين لأي حيوان هي..
سأل الرجل الذي معه عنها فأشار له بالصمت
وأجلسه وسط النّجمة وبدأ في القراءة وقال ليونس:

- أغمض عينيك

ثم قام بصب الدماء فوق رأسه وهو يُتمِّم بكلمات غريبة.. فانتفض جسد يونس وشعر بحرارة شديدة داخله حتى بات وكأنه يحترق داخلياً.. حاول القيام.. فأمسك به الرجال بقوة ولكنه استطاع أن يتخلص منهم فدفَع أحدهم دفعة قوية ألقت به بعيداً.. فتراجع الرجال متعجبين من قوة يونس الذي قام من وسط النُّجْمة.. فناولَه أحدهم ورقة مكتوبة بلغة غريبة ولفها بقطعة قماش، وطلب منه أن يضعها تحت سرير سيده أثناء نومه.

استفسر «يونس» عن السبب، فطلب منه الرجل ألا يسأله الآن، وطلب منه ألا يحكي للرجال في حَوْش الهنود عما يفعله هنا.

في المساء كان «يونس» يضع الورقة تحت سرير سيده التركي، ثم ذهب لينام.

في اليوم التالي، سمع «يونس» البيك التركي يتحدث مع أحد خدمه الذي أخبره أن أحد مماليك البيك هو الذي سرق جوال القمح وأخفاه في أحد بيوت اليهود.. فأشار له التركي بأن يخفي هذا

الموضوع.. وفي تلك اللحظة لمح التركي يونس..
فناداه ثم أعطاه صفة قوية على قفاه ولامه لأنه لم
يُحسن تنظيف حظيرة الخيول بالأمس.

- يا خرسيس.. أنت لا تهتم بأداء عملك.. ويبدو
انك ستلحق بزميلك قريباً .. ثم قهقه بصوت عال.
في المساء سمع «يونس» صراخ وعويل.. فخرج
ليتبين الأمر

فرأى حصان يركض من بعيد وفوق ظهره رجل
تشتعل فيه النيران ويصرخ بأعلى صوته.. حاول
يونس أن يتبين الرجل فوجده سيده التركي.. هاله
المشهد.. حاول البعض أن يَسْكُب الماء فوق التركي
ولكن الحصان كان يسير في دوائر لا يستطيع
أحد اللحاق به.. ظلَّ الرجل يحترق ويصرخ لساعات
طويلة دون أن يتمكن أحد من إنقاذه.. وبعد الفجر
كان جسد التركي قد تحول لرماد، اندهش
جميع من في المدينة من أمرين غريبين في تلك الليلة..
الأول أن الحصان لم يصب بأي سوء والتركي
مشتعل فوقه.. والآخر أن التركي ظلَّ وقتاً طويلاً
يحترق حياً بشكل خارج عن المألوف.

شعر «يونس» بالغبطة لموت سيده.. وانتقامه
لزميله.. وفي الليل هرول نحو حَوْش الصيادين..
ليكمل ما يتعلمه.. ويوماً بعد يوم أصبح يرتوي من
فنون السحر الأسود على يد معلميه الجدد.. ورُوِيَ أنَّ
رُوَيْدًا أصبح يتردد على حَوْش الصيادين فقط دون
حَوْش الهنود .



وهنا توقفت عن القراءة، فقد وجدت الكثير من
صفحات الكتاب مقطوعة! أين باقي الصفحات؟
لقد بلغ مني الشغف مبلغه.. لا بد أن أعرف ما فعله
يونس؟ وماذا حل بالمدينة بسببه؟ وما سبب اختفاء
«أم بطة» على يديه.



قمت بتقليب المتبقي من صفحات الكتاب..
فوجدت جزءاً أعتقد إنه الجزء الأخير من الكتاب،
تكرر فيه ظهور النّجْمة السُّداسيّة ولكن هذه المرة
داخلها رسمة هندية.. ووجدت كتابات غريبة باللغة
العربية، كأنها خطوات لتنفيذ طَلَسْم^١ ما عن رفع
مقعد بعقلة أصبع واحدة!! وقرأت بالكتاب إن هذا
الطَلَسْم كان يستخدم في الماضي لرفع إمام جامع
الكناني ليصعد المنبر فقد كان رجلاً ثقیل الوزن
مصاباً بالشلل.

لم أُصدّق هذا الطَلَسْم! ولا التخاريف الموجودة
بهذا الكتاب!

قلت لنفسی: الظاهر «سيدي يونس» اخترع
الأسانسیر قبل الزمان بزمان، وضحكت ساخراً.

في تلك اللحظة فكرتُ ذقني.. ونهضت من
مَقْعَدِي.. ثم أمسكت الكتاب بيدي.. ووضعت
إصبعي تحت المَقْعَد ثم قمت بتلاوة الطَلَسْم..
فكانت المفاجأة! لقد ارتفع المَقْعَد في الهواء بسهولة
تامة !!! اعترتني الدهشة.

(١) الطلسم عبارة عن خطوط وأعداد يُزَعَمُ كاتبها أنه يربطُ بها روحانيّات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية لجلب محبوب أو دفع أذى، وهو لفظ يوناني لكل ما هو غامض مُبْهِمٌ كالألغاز.

في اليوم التالي كنت بالعمل أستدعي أحد زملائي

- أُقعد على الكرسي

- لماذا؟

- نفذ ما أقوله.. فجلس

فقمتم بتمتمة الطلّسّم ووضعتم إصبعي تحت الكرسي فارتفع الكرسي وزميلي جالس فوقه، وسط دهشته الشديدة:.. الله .. الله .. الله؟ .. ماذا تفعل؟!

تذكرت كتاباً قرأته عن تاريخ المنصورة، ذكر شيئاً عن الطلاسّم.. وانتشار استخدامها في تلك المدينة في أحد الأزمنة، فتقول إحدى صفحات الكتاب "أن خدم المساجد كانوا يقرأون طلاسّم في أرجاءها كي تمنع دخول الطيور والفئران إلى المسجد وتزعج المصلين.. ويضيف أن كتابة الطلاسّم انتشرت في المدينة بشكل واسع، حتى بدأ أئمة المساجد في التحذير من عواقبها الوخيمة.. ويقول الكتاب إن أهل المدينة تعلموا تلك الطلاسّم من الهنود واليهود.. واستوقفتني كلمة اليهود هذه.

في المساء كنت أحكي ما حدث معي لبطة..
وعن أسرار الطلاسـم والأعمال الموجودة بهذا
الكتاب، وفوجئت برد فعلها المستـكـر.. فقد
حذرتني من التلاعب بتلك الطلاسـم كي لا يحدث
لي مكروه، فباغتتها قائلاً:

- هل يهـمك ما يصيبني يا «بـطـة»؟

فضحكت ضحكتها اللطيفة.. ولكن سرعان
ما قالت بنبرة حزينة:

- لقد وعدتني بعودة أـمـي.

فتغيرت نبرتي أيضاً، وقلت لها بجدية:

- نعم وعدتك ولن أخلف وعدي.

لقد أصبح وعدي لبطة ديناً في رقبتـي، ولكن
كيف سأنفذه؟!

قضيت كل وقت تيسر لي في القراءة عن
الغيبيات والسحر الأسود، فقرأت رواية "شفرة
دافنشي" التي تناولت غموض النجمة السداسية..
يبدو أن نظرية المؤامرة الكونية قد سيطرت على
تفكيري، بدأت افكر في الحوادث الكثيرة التي

أقرأها كل يوم في الصحف، وبشاعتها التي تزيد يوماً بعد الآخر دون تفسير مقنع.

عكفت لأيام طويلة على قراءة الحوادث التي مرت على المدينة وأبنائها.. وقمت بزيارة المكتبات العامة أفتش في الصحف القديمة عن الحوادث التي تعرض لها الناس خصوصاً حوادث الحرق والتفجير.

استرجعتُ ذكريات حادثة تفجير مديرية أمن المدينة ومسرحها التاريخي.. هذا الانفجار الضخم الذي سمعه جميع الأهالي.. أذكر أن أخبار الحوادث في الماضي كانت تغطي صفحة أو اثنتان بالصحف.. ولكن اليوم تُفرد المواقع الإخبارية عشرات الصفحات للحوادث المؤلمة، فلا يمر يوم بدون أكثر من حادثة اصطدام سيارة بشع.. وقوع أسيرة بالترعة.. قتل أب لأطفاله بدون سبب.. جدة تعذب حفيدتها حتى الموت.. شاب يغتصب طفل جاء مع والديه من أوروبا في زيارة لمسقط رأسهم.

يقول الكتاب الذي أقرأه عن السحر الأسود إن الحوادث البشعة وغير المبررة تزدد عند ممارسة

عمليات تحضير مسبق للجان أو العبث بقراءة بعض
التعاويذ و الطلاسم!!

عندما أشاهد فيديوهات تصور الحوادث لا يوجد
منطق يفسرها.. شاهدت فيديو لسيارة تسير
بالشارع العمومي في سرعتها العادية وفجأة انحرفت
على الرصيف لتقتل السائرين عليه وتبترساق
رضيع.. ورأيت اليوم فيديو لرجل يسير بجوار
الرصيف فظهرت فجأة سيارة مسرعة يقودها شاب
متهور، فألقت به للأعلى واصطدم بزجاج محل
ببشاعة!

لقد أصبح الناس يتعايشون مع تلك الحوادث
بوصفها أمر مسلم به.. ما أسهل أن يسوق الجميع
التبريرات بالإهمال.. أو حالة الطرق، هل تلك
الحوادث قدرية؟ هل هي يد القدر؟
أم أنها يد الشيطان؟!

لقد عاشت هذه المدينة مئات السنين دون أن
تشهد تلك الحوادث الغريبة.. بعد تفكير عميق
وصلت إلى استنتاج هام.

لقد كان «يونس الأسود» واحداً من أبشع من
مارسوا السحر الأسود في المنصورة بل في مصر
كلها.

ويبدو أن ما حدث معي من غرائب وما حدث لعلي
الأسمر و «أم بطة».. بل والحوادث التي تحدث هذه
الأيام سببها أن لعنته قد عادت بشكل ما.

هل قام أحدهم بتحضير روحه؟ فعاد لينتقم؟
يا إلهي.. لا أدري.. لا أفهم.. الأفكار تتصارع في
عقلي.. لقد أصبحت على شفا الجنون.

كانت حياتي قد بدأت تتخبط كثيراً.. فما
مررت به كفيل بأن يجعل أقوى الرجال مجنوناً..
زادت تساؤلات المحيطين بي عن حالتي.. لقد أهملت
عملي وحياتي.. ولكنني لا أزال مصمماً على أن
أحل هذا اللغز حتى لو كان الثمن.. ذهاب عقلي.

الإنسانة الوحيدة التي كانت تشعرني بأنني لا
أزال عاقلاً هي «بطة».. فقد كان يجمعنا إيمان
واحد.

في المساء كنت بالمكتبة أناقش الأستاذ
«حَبَاب» عن الحوادث الغريبة التي ربطت بينها
وبين «يونس الأسود».. كان يستمع لي بإنصات ثم
قال:

- سأعطيك كتاباً لتقرأه عن النجمة
السُداسيّة والسحر الأسود ولكن لا تستخدمه..
افهم منه فقط.
- حاضر.

في الكتاب قرأت عن بعض الأسحار والأعمال
التي لا يزال الناس يمارسونها حتى الآن .

فقرأت عن "الْمَنْدَل" هذا الطلسم المشهور.. الذي
يساعد في العثور على المفقودات التي تضيع من
أصحابها.. وكيف يفتح العراف المَنْدَل عن طريق
رسم نجمة سُداسيّة على الأرض.. ثم يضع بكل
طرف فيها شمعة.. وتجلس طفلة غير راشدة في
منتصف تلك النجمة.. وتكمل الطقوس بأن
يكتشف العراف مكان الأشياء المفقودة.. والتي
غالباً ما تكون مشغولات ذهبية.

أذكر في طفولتي أن فتح المندل كان أمراً
معروفاً في مدينتنا والقرى المحيطة بها.. بل ولا يزال
حتى الآن هناك أكثر من شخص يدّعي أنه خبير
في فتح المندل.

لقد تعبت روحي وأصاب الإرهاق عقلي وقررت
ألا أحلم هذه الليلة ولكن كيف؟!

اتصلت بصديقي الطبيب النفسي الذي أعطاني
حبوباً مهدئة قوية تساعدني على النوم العميق دون
أحلام.. لقد حزنت لاضطراري لتناول تلك الأدوية
لأول مرة في حياتي.. ورغم ذلك فقد حلمت..
ولكنني هذه الليلة حلمت ببطة.. كان حلماً جميلاً
وليلة نوم هادئة لم أرها منذ وقت طويل.



نَجْمَة داوود

في اليوم التالي كنت مع الأستاذ «حَبَّاب» أناقشه في كتاب الطلاسم السحرية الذي اطلعني عليه.. ووضحت له شكوكي في أن المدينة بأكملها ربما تتعرض لعمل سحري يسبب الأذى لسكانها، ولكنني تراجعت وقلت له:

- يبدو أنني أعيش داخل نظرية المؤامرة، لا بد أن أبعد تلك الأفكار عني.

- ومن قال أنك تعيش نظرية المؤامرة؟ كلامك صحيح، وأزيدك أيضاً.. طريقة فك السحر التي قرأتها تصلح لفك السحر لشخص واحد.. لكن يمكنك استخدام طريقة فك السحر الشامل الذي يصيب بلدة بأكملها.

فسألته باهتمام:

- كيف؟

- عليك أن تحدد المناطق الملعونة وتقوم

بتوصيلها على شكل نجمة سُداسيّة،

قاطعته قائلاً:

- كيف أحدد المناطق الملعونة.. وكيف أصلها وهي مناطق تبتعد بعضها بمسافات كبيرة؟



- سنفترض أن مقام «سيدي يونس» نقطة وبيت المختلط الأول نقطة ثانية وبيت المختلط الآخر نقطة

ثالثه. .. ثم قام برسم نجمة سداسية وكتب عليها تلك أسماء الأماكن، وهنا بدأت في استيعاب ما قاله وقلت باهتمام:

- أنت تقصد أن هناك ست مناطق في مدينتنا واقعة تحت السحر الأسود؟ نحن نعرف منهم الآن ثلاثة؟

- نعم.

- ولو عرفنا المناطق الثلاثة الأخرى يمكننا فك اللغز؟

- تمام

- لكن كيف سنعرف باقي المناطق؟ فكرت قليلا.. وقبل أن يرد أردفت: أعرف كيف سنصل لهم.



في الصباح الباكر كنت واقفاً أمام مبنى هيئة
المساحة متفحصاً واجهته الأثرية.. إنه مبنى مهيب لا
تزال تزينه ثلاثة نجوم وهلال ترمز إلى علم مصر
القديم أيام الملكية.

كانت المرة الأولى التي أدخل فيها إلى هذا
المبنى الذي يقصده كل من يريد خرائط للمدينة..
سرت في ممر طويل، وجدت نفسي في غرفة
كبيرة.. رفوفها عالية تصل حتى السقف ومليئة عن

آخرها بالملفات والخرائط لم أجد أحداً بالفرفة..
جذبتني بعض الخرائط البارزة من الرفوف ونظرت
إلى إحداها وقد كُتِبَ عليها "المنصورة" بحروف
النسخ القديم، فجذبتها ونظرت فيها باهتمام،
فوجدت من يريت على كتفي:

- ممنوع يا أستاذ.
- آسف لم أرى أحداً هنا.. وجذبني شكل
الخرائط.

- ما هو طلبك؟
- أريد خريطة قديمة للمدينة.
- هل تريد خريطة لمكان معين؟ من أجل
المواريث؟

- لا ليس لطلبي صلة بالمواريث.. أريد فقط
خريطة لمنطقة المُخْتَلَط.

فدلف إلى الرفوف الخلفية واختفى عن ناظري،
ثم عاد بيده خريطة قديمة للغاية وقال:

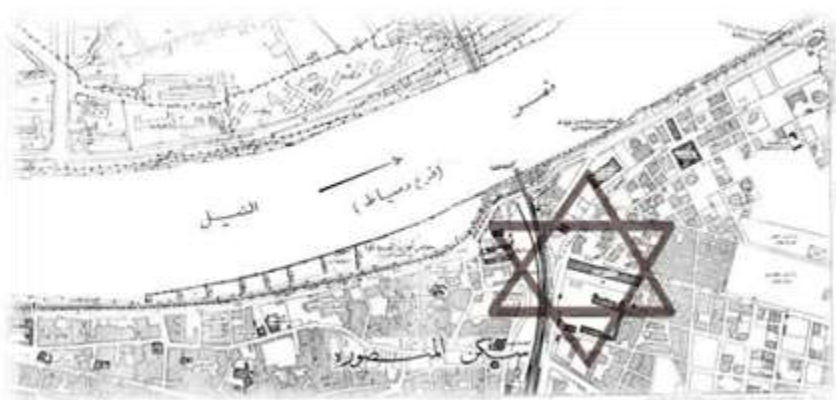
- ادفع الرسوم في الخزانة وعد لتستلم نسخة
منها.

تفحصت بشغف؛ الخريطة التي تصور حي
المُخْتَلَط ولكن استوقفني أن تاريخها يعود إلى

عشرينيات القرن العشرين فقلت له: ألا توجد خريطة أقدم من تلك؟

- هذا أقدم ما لدينا للمُخْتَلَط.. لكن توجد خريطة تعود لسنة ١٨٨٧ يمكنك الحصول عليها من الهيئة بالقاهرة.. فقلت له: أشكرك هذه الخريطة كافية.

أثناء سيري بالشارع تملكني الشغف لمطالعة الخريطة فقامت بفردها لأدقق فيها.. هنا مقام «سيدي يونس».. وهنا بيت المُخْتَلَط...، وهنا بيت المُخْتَلَط الثاني.. ظلت أطالع الخريطة طوال الطريق ما أثار فضول المارة.. وعدت إلى المنزل وقمت بفردها على منضدة كبيرة.



تذكرت ما قاله الأستاذ «حَبَّاب» بأن مكان الشيطان تقع في أماكن متفرقة بمدينة المنصورة

وموزعة على شكل النُّجْمَة السُّدَاسِيَّة.. أحضرت
مسطرة وقلم رصاص، ورسمت دوائر صغيرة حول
تلك الأماكن، وقمت بالتوصيل بينها على شكل
نُجْمَة داوود، ونظرت في الخريطة جيداً.

كانت أطراف النُّجْمَة في أماكن لا معنى لها،
فأحد الأطراف في منتصف الشارع، والآخر في
أرض زراعية، وأحدت بعيني في الخريطة
بتركيز، فلاحظت بالقرب من الطرف السفلي
للنُّجْمَة رسمة صغيرة للغاية، دقت فيها جيداً
باستخدام عدسة مكبرة، فقرأت بخط متناهي
الصغر "مقام أم الشُّعُور".

مسحتُ النُّجْمَة من فوق الخريطة وأعدت رسمها
مرة أخرى حتى تلتقي مع مقام أم الشُّعُور!.

في الصباح الباكر كنت في حي "ميت حذر"
أبحث عن مقام أم الشُّعُور فدلني البعض على
مكانه.

دخلت من شارع صغير.. فلاحظت في أوله مسجد
تعلوه مئذنة قديمة مدببة الشكل، مكتوب عليه
مسجد "سيدي الأربعين" وبعده بقليل لاحظت قبة

كبيرة تحتها ضريح ويبدو أن هناك من يسكن به .. تلهو أمامه طفلة ، فسألتها: أليس هذا ضريح الست أم الشعُور؟ فتوقفت عن اللعب ونظرت نحوي نظرة حادة.. وحملت في عيني ثم أشارت إلى منتصف الشارع.

ذهبتُ إلى المكان الذي أشارت إليه.. وهناك وجدت ضريح صغير تعلوه قبة أصغر.. بابه خشبي تبرز منه قضبان حديدية يبدو أنها مוגلة في القدم.. راعني وجود تلال من القمامة أمام باب الضريح.. سرت مشمئزاً وسط القمامة وأنا اختلس النظر داخل الضريح.. رغم أننا في منتصف النهار، والضوء يغطي كل الشارع.. إلا أن الضريح كان مظلماً بشكل غير طبيعي.. لم أتبين ما بداخله وفجأة رأيت شيء يسير بسرعة كأنه يجر وراءه ما يشبه الشعر البشري.. ولكنني انتبهت وقلت:

- ربما قطة أو أي حيوان.

سألت أهل المنطقة عن المقام وعن صاحبه ولكن كالعادة، وجدتهم لا يعرفون عنه سوى اسمه.. عكفت على البحث في الإنترنت عن "أم الشعُور" فوجدته اسماً لأسطورة مصرية قديمة

تقول: "أم الشُّعُور هي جنية كانت تخرج من الترع
ظهرًا.. شعرها منكوش وأظافرها طويلة.. تجلس
على شط التربة في انتظار أي طفل يمر في الطريق
ثم تقوم بخطفه والغوص به في أعماق التربة!"

ولكن بعد هذا الكلام المرعب، كيف يكون
لها مقام في المنصورة؟ هل شَيَّدَ المقام لها خوفاً منا؟
ومن هي أم الشُّعُور التي ذكرها «علي باشا مبارك»
في كتابه الخطط التوفيقية منذ أكثر من مئة

وخمسين عاماً؟ .. لقد قمت بسؤال كل من أعرفه
عن هذا المقام وتاريخه الغامض.. فأوصلني أحد
أصدقائي بالأستاذ «السقا».. وهو مدرس كبير
السن عليم بأصل المنطقة، وتصادف يوم لقائي به
أنه كان يحتفل بعيد ميلاده الثامن والتسعين..
فجئته بهدية وجلست أتحدث معه.

أخبرني أن هذا المقام كان في الماضي يقع على
النيل مباشرة.. وأن المنطقة بأكملها كانت مقابر
ويؤكد ذلك وجود جامع الأربعين وبجواره مقام
العراقي ومقام أم الشُّعُور ومقامات أخرى.. فسألته
عن مقام أم الشُّعُور فقال لي:

- لن أفيدك أكثر من ذلك وعليك أن تقابل «عرفان».

- «عرفان»؟!

في مصحة نفسية تقع بإحدى القرى خارج المدينة..
جلستُ على كنبه بجوار «عرفان» أقدم نزيل بتلك
المصحة، وجلستُ «بطة» التي طلبت منها ألا تتحدث
على كرسي بالقرب منا.

كان «عرفان» رجلاً في السبعين من عمره
تقريباً.. هادئ.. يرتدي بيجاما زرقاء اللون.. حليق
الذقن.. لا تعرف أين تنظر عينيه فهما غائرتان
حائرتان.. علم أنني أزوره لأسأله عن حكايته مع أم
الشُعُور.. رفضت الطيبة في البداية أن أتحدث معه
في الحكاية التي كانت سبباً في جنونه، ولكن
بعد استئذان مدير المستشفى استطعت الجلوس مع
عرفان الذي بدأ بالحديث قائلاً:

- هل أنت صحفي أم طالب بالطب النفسي؟

- لا هذا ولا ذاك.

- إذا جئت لتتسلى بسماع حكايتي كغيرك؟

نظرتُ نحو «بطة» التي بادلتني النظرة.. ثم عدت إلى «عرفان» الذي كان يحملق بنا.. وقلت له:

- لم أأتي من أجل التسلية.. وحكيت له حكايتنا.. كان ينصت باهتمام، وبدأ مقتنعاً بما أقوله.. وبعد أن انتهيت.. اتكأ فوق مقعده ثم وضع يده فوق كتفي وقال:

- سأحكي لك حكايتي.. وبدأ يستعيد ذكرياته قائلًا:

- منذ سنوات طويلة ونحن في شبابنا.. كانت شلتنا تتناقش في موضوعات كثيرة.. وفي أحد الأيام جلسنا مع شخص أكبر منا سنًا يسمى «علي».. كانت حكاياته مسلية.. حدثنا عن أسطورة أم الشعُور وقال:

- هل تعلمون أن بالمنصورة مقام لأم الشعُور؟ سكت الجميع.. ثم تكلم احدها:

- مقام أم الشعُور؟ هذه المرة الأولى التي نسمع عنه.. فأكمل علي كلامه:

- صاحبة هذا المقام.. عندما توفيت ظل شعرها ينمو بعد دفنها حتى خرج من القبر فقام الأهالي بعمل مقام لها.

قبل أن يكمل «علي» كلامه كان تأثير المفاجأة قد ذهب.. وانفجرنا جميعاً من الضحك.. وقال له زميلنا «مراد»:

- هل هناك من يصدق هذا الكلام ؟ نحن في القرن العشرين يا «علي».. لقد تغيرت الدنيا.. والمقامات مجرد بدع.. أنت تعيش الوهم يا صديقي.

فتغير وجه «علي» وقال:

- هناك حكايات عن أناس حاولوا نبش قبر أم الشعُور ولكنهم اختفوا.. فضحكنا مرة أخرى وقال له مراد:

- يبدو انك أثقلت في الشرب؟ فضحك الشباب، فوجّه «علي» كلامه لمراد وفي عيونه نظرة تأهب:

- أتحداك أن تبقى وحدك في هذا المقام.

- أنا لم أخشى طوال عمري من جن أو عفريت.. فهل سأخاف من أم الشعُور؟
- إذاً لنضع رهاناً.

تحمّست الشلة كلها للرهان الذي شاركنا فيه جميعاً.. البعض مع «علي» والبعض مع «مراد»

وأصبح الموضوع على سطح ساخن.. اتفقنا أن
يمكث مراد وحده داخل المقام لمدة ساعة كاملة
بعد منتصف الليل.. وأنا وعلي نكون شهوداً عليه.

توقّف «عرفان» عن الكلام ليلتقط أنفاسه التي
كانت تتقطع وقد تغير لون وشكل عينيه.. فقامت
«بطة» لتستدعي الممرضة، التي نادى بدورها
الطبيبة، التي قالت بلهجة حازمة:

- يكفي ذلك صحة الرجل لن تتحمل.



(٧)

الست أم الشعُور



نظرتُ إلى «عرفان» وأنا مشفقُ عليه وهممت
بالقيام ولكنني وجدته يشير لي بالجلوس.. ثم
التقط نفساً عميقاً.. فاستأذنت الطيبة التي وافقت

على مضض.. عاد «عرفان» إلى رشده واعتدل في
جلسته ليكمل حكايته قائلاً:

- في اليوم الموعد سارت الشلة وراء «علي»
و«مراد».

اقتربنا من «ميت حدر» .. مشينا في شوارع الحي..
من شارع إلى حارة حتى وصلنا إلى بقعة مظلمة
وكئيبة.. كان عمود النور الوحيد بالشارع مطفئ.

شعرتُ برهبة وحتى لا يلحظ رفاقي ضعفي
تشجعت وضحكت بصوت ساخر قائلاً:

- هيا يا شباب جهزوا نقودكم.

كان الشارع الموجود به المقام أكثر ظلمة..
كلما تقدم مراد خطوة.. تتراجع الشلة للوراء
خطوة... دخلنا إلى الشارع الذي شعرنا انه بدأ يضيق
أكثر وأكثر .. أصوات رفاقنا بدأت تخبو.
فجأة وجدتُ «علي» يقول لمراد:

- تذكر يا «مراد» أن من يدخل المقام وهو غير
مؤمن بقدرات الست أم الشُعُور لا يعود.. ملأ الخوف
قلبي وقلت: لنلغي هذا الرهان يا «علي».

فرد مراد: لا لا.. اتركني أأخذ نقوده حتى يتوقف عن الادعاء.

وصلنا المقام الذي كان يشبه الكوخ.. كانت المرة الأولى التي أراه بها.. مغلق بباب خشبي قديم دفعه مراد بقوته.. فلم يفتح من المحاولة الأولى.. ولكنه فتح بالنهاية محدثاً أزيزاً مخيفاً.

دخل مراد المقام.. خيوط العنكبوت في كل مكان.. بدأت تغطي وجه مراد.. حاول إبعادها عنه.. أشعل عود كبريت.. كان يبحث عن الضريح.. ولكن قدمه تعثرت في حفرة صغيرة.

جلس مراد مقرفصاً.. ولاحظ على الأرض شيئاً غريباً!! كانت هناك خصلة شعر طويلة بارزة من الأرض.. نظرنا لتلك الخصلة بدهشة.. لكن قلت لنفسي:

- يبدو أن «علي» وضعها لكي يخيف مراد.. ابتسمت وغمزت لـعلي.

أمسك «مراد» طرف خصلة الشعر يجذبها للأعلى.. فخرجت معه.. فنظر لي «مراد» بابتسامة المنتصر.. ولكن كلما جذب في الخصلة تخرج معه

أكثر وأكثر.. امتنع وجهي.. هل توجد خصلة شعر بهذا الطول؟ .. لقد سحب منها أكثر من متر.. في نفس اللحظة لم نلاحظ أن هناك خصلة أخرى ظهرت خلف قدم «مراد» .. فجأة اشتبكت قدمه في الخصلة الثانية التي التفت حول ساقه.. حاول مراد الوقوف فلم يستطع.. فقد كبته الخصلات! ملأنا الرعب وشعرنا بالشلل.. صرخت لمراد:

- اخرج بسرعة يا «مراد»

خصلة الشعر كانت تطول أكثر وتحكم قبضتها حول ساقه أمسك بالكبريت وأشعله محاولاً حرق الخصلات دون جدوى .. بدا الشعر وكأنه حيّة التفت حول ساقه تعصرهما .. بدأ مراد في الصراخ :

- ساقى .. لا أتحمل الألم.. دخل «علي» إلى المقام وحاول جذب مراد دون فائدة ثم صرخ:

- ساعدني يا «عرفان».. لكنني شعرت بالشلل يعتريني.. صحت بكل قوتي أنادي رفقائي.. فلم أجد منهم رداً.. صرخت أكثر من مرة.. لقد غاص معظم جسد مراد تحت الأرض.. غاص أكثر وأكثر وكانت آخر كلماته:

- ارحميني .. ارحميني.. ثم اختفى.

في اليوم التالي ظهر خبر بالجرائد عن اتهام مجموعة من الشباب بقتل زميلهم ودفنه في مكان مجهول.. وأقسموا أنه دخل مقاماً قديماً ولم يخرج.. تم تفتيش المكان دون جدوى، وظل التحقيق عدة شهور .. وبالنهاية خرجنا لعدم العثور على الجثة، وعدم كفاية الأدلة، أما «علي» فاختفى بعد حادثة «مراد» مباشرة، ولم تستطع الشرطة العثور عليه.

كنت أنصت باهتمام، وقلت له: وماذا بعد ؟ فقال: حياتي ضاعت وانتهى بي الحال كما ترى. فركتُ ذقني بأصابعي وقلت له:

- هل صديقك «علي»، اسمه الكامل.. «علي الأسمر»؟ فرد «عرفان»:
- نعم .. كيف عرفت؟!

وعندما سمعتُ «بطّة» اسم جدها «علي الأسمر» اضطربتُ، واغرورقت عيناها بالدموع فقممت بتهديتها وغادرنا، وفي الطريق قلت لبطة:

- أنا على ثقة بأن مقام أم الشعُور أحد نقاط نجمة «يونس الأسود».

لم تُرد «بطة» التي كانت بجواري تتظر بشرود
من نافذة السيارة.. كنت اعلم إنها تفكر فيما
حكاه عرفان اليوم عن جدها.. بينما كنت أنا في
حيرة وأفكر كيف سأربط الأحداث ببعضها؟!

عدت إلى الأستاذ «حبّاب».. وحكيت له حكاية
أم الشعُور فبدت على وجهه السعادة وقال: أظن أننا
اقتربنا .. لم يتبقى سوى مكانين ونحل كل الألفاظ



في اليوم التالي كنت أسير مع «بطة» في شوارع
المُختَلَط نحمل الخريطة نحاول البحث عن المكانين
الباقين.. ودلفنا إلى أحد الشوارع الجانبية فجذبني
مشهد لقصر شديد القدم وشبه متهدم يغلب عليه
اللون الأحمر.

يعرفه كل سكان المنطقة باسم القصر الأحمر..
إنه بناء غريب لا يوجد مثيله في مدينتنا.

هذا القصر يشبه قصور الأساطير والحكايات
الخرافية وأفلام الرعب.. له برج عالي..



ولكن يا للخسارة! .. القمامة تحيط بالقصر
من كل جانب، وتم خلع جميع أبوابه ونوافذه ..
حاله حزين للغاية سمعت إشاعات بأنه مسكون..
سألت بعض المحيطين عن تلك الإشاعات فلم تزد
عن كونهم يسمعون أصواتاً غريبة صادرة من داخل
القصر.. فسرّها البعض بأن سببها المدمنين الذين
يدخلونه خلسة للتعاطي.. يبدو هذا القصر مكاناً
مناسباً لبحثي.. لذلك أعدت رسم النّجمة فوق
الخريطة لتلتقي مع موقع هذا القصر فوجدته
متطابقاً.. الآن لم يعد متبقياً سوى نقطة واحدة

وتكتمل النّجْمة.. وعندما نمت في المساء، حلمت
بالقصر الأحمر!!

رأيت بالحلم شاب في أحد شوارع المُختَلَط 
بدا كأنني أعرفه اسمه «عصام».. كان سعيداً لأن
«سامي» صديق طفولته سيعود من دبي بعد طول
غياب ليقضي معه أجازته.

مر شريط ذكرياته أمامي عندما كانا طالبان
بالمدرسة.. يلعبان معاً في القصر الأحمر المهجور
ويدخان السجائر.. في غمرة ذكرياته جاءه تليفون
من «سامي» بأنه في الطريق إلى المدينة وطلب منه أن
ينتظره في القصر الأحمر.. اندهش «عصام» من
طلب صديقه الغريب، ولكنه ذهب إلى هناك،
فوجد صديقه واقفاً على باب القصر.

كان الشحوب بادياً على وجه «سامي».. مشعث
الشعر ملابسه غير مهندمة.. الأمر الذي أثار
استغراب «عصام» الذي ركض نحوه ، ولكن
«سامي» بدأ في صعود سلالم القصر.. ناداه
«عصام»:

- إلى أين يا «سامي»؟ لم يرد وأشار إلى «عصام» بالصعود إليه.. فقال «عصام»:

- هل لا تزال تفعل تلك المقالب؟ انتظرنى أريد أن أسلم عليك.. لقد افتقدتك كثيراً.

ابتسم «سامي» ابتسامة باهتة.. واستمر في صعوده و«عصام» يسرع وراءه.. وصل «سامي» إلى الدور الأخير من القصر.. ثم وقف على حافة شرفته المتهاكة المنزوع سورها.. صعد «عصام» لاهثاً فشهد صديقه واقفاً على شفا الشرفة وظهره للشارع، فأشار إليه أن يتقدم للأمام حتى لا يسقط.. نظر إليه «سامي» مبتسماً وفتح ذراعيه وألقى بظهره ساقطاً في الشارع 

استيقظت من نومي.. يااه لقد بدا الحلم حقيقياً للغاية.. كيف ظهرت وجوههم وأسماءهم بتلك الدقة؟ قررت الذهاب إلى الشارع الذي كان مسرحاً لهذا الحلم

قطعت الشارع ذهاباً وإياباً لعلني أراهم.. وقفت في محل بقالة لأتناول مشروباً، وسألت البائع:

- هل تعرف «عصام»؟

- أي «عصام» ؟ بالمنطقة أكثر من شخص
يدعى «عصام»

- هل تعرف «سامي» ؟ فأوماً برأسه.. لا.
عندما هممت برفع المشروب إلى فمي، وجدته
يسير في الشارع ممسكاً بهاتفه.. تركت ما بيدي
وهرولت نحوه.. كان يتحدث في الهاتف.. وقفتُ
أمامه وقلت:

- أستاذ «عصام» ؟ فأوماً برأسه.. نعم..
وقبل أن أكمل كلامي أشار بيده حتي ينهي
حديثه، فسمعتة يقول:

- نعم يا «سامي».. أين أنت؟ في القصر
الأحمر؟ ماذا تفعل عندك يا مجنون ؟ أنا قادم إليك
حالا.. فقلت له:

- هل ستذهب لصديقك «سامي» ؟
- نعم .. ولكن من أنت ولماذا تسأل؟ وقبل أن
أجيبه.. أشاح بوجهه عني ثم ذهب في طريقه.

سرت وراءه أراقبه لأرى ما سيحدث.. وقفت بعيداً
أشاهده وهو يدخل إلى القصر الأحمر.. نظرت باحثاً
عن «سامي» فلم أجده.. أسرع نحو «عصام» الذي
كان قد صعد السلم.. وقفت في بهو القصر المتهالك

انظر إلى الأعلى فسمعت خطوات «عصام» وهو يصعد السلم ولم أرى سوى ظله ثم سمعته يقول:

- هل لا تزال تفعل تلك المقالب؟ انتظرنى أريد أن أسلم عليك.. لقد افتقدتك كثيراً.

وقفت بالقرب من باب القصر لكي أرى الشارع جيداً فرأيت جمع من الناس يقتربون من القصر.. وقفوا أمامه قائلين: لا حول ولا قوة إلا بالله.. وقفت بينهم لأرى شخصاً واقفاً على طرف الشرفة ينظر للأسفل.. انه «عصام»!.

ولكن أين «سامي»؟

فجأة تراجع «عصام» إلى الوراء ثم نزل إلى الشارع ووجهه مكفهر والدموع تملأ عينيه.. ظلّ ينظر إلى أرض الشارع حائراً كمن يبحث عن شيء! ويقول:

- أين هو؟ أين هو؟ نظرت معه لأتبين عما يبحث.. وفي تلك اللحظة ربت أحد الرجال على كتف «عصام» وقال:

- البقاء لله.. صديقك «سامي» توفي أمس في دبي.. انقلبت به السيارة وهو في طريقه إلى المطار!

في تلك اللحظة التقت عيني بعيني «عصام» وظللنا
نحدق لبعضنا طويلاً.

غادرت وأنا على يقين أن القصر الأحمر هو
النقطة الخامسة التي أصابها السحر الأسود.

(٨)

سيدي سعد



في المساء ظللت أفكر.. يبدو أن لعنات يونس
الأسود تتصاعد ويجب أن أنهي هذا الأمر سريعاً..
لم استطع الوصول إلى المكان السادس.. جريت
تغيير النجمة السُداسية يميناً ويساراً ولكنني لم
أفلح.. وجدت الأمر صعباً.. في تلك اللحظة لاحظت

أن شخصاً يمر بجواري.. نظرت بسرعه فلم أر
أحداً!

ما هذه الخيالات التي تراودني وأنا وحدي دائماً؟!
في المساء كنت أحكي للأستاذ «حباب» عن
المكان السادس ففكر قليلاً ثم قال:

- هل جرّيت مقام سيدي سعد في حي ميت
حدّر؟.. إنه مقام قديم.. أقدم من مدينة المنصورة
نفسها.

فهزّزت رأسي وأنا عاقد العزم على أن أفتش في
حكاية سيدي سعد.. ذهبت إلى مسجده.. وحاولت
أن أبحث عن ضريحه بالمسجد.

وقفت أمام المسجد حائراً.. فوجدتُ مقابله مقهى
بسيط جميل.. جلست عليه.. جاء القهوةجي وكان
بشوش الوجه.. طلبت منه كوب من الشاي.. أثناء
جلوسي وقفت أمامي سيدة ترتدي عباءة مغربية
مزركشة ومزينة باكسسوارات مبالغ بها.. نظرت
لي.. فقلت بتلقائية:

- ربنا يحنن.. فنظرتُ إليّ شذراً وقالت:

- أنا لا أتسول منك.. شعرتُ بالحرَج.. فرغم مظهرها الغريب لكنها لا تشبه المتسولين.. تأسفت لها، فجلستُ على المقعد المقابل وقالت:
- ماذا تعرف عن نجمة داوود؟
- نظرت لها باستغراب.. نجمة داوود؟! لما تسألين هذا السؤال ؟! فقالت: أجبني
- أعرف إنها رمز في الديانة اليهودية، وتستخدم في الأعمال السحرية.
- هل تعلم أن النجمة السُداسيَّة من أهم رموز الديانة الهندوسية.. تمثل لهم رمز لاتحاد القوى المتضادة مثل الماء والنار.. الرجل والمرأة.
- وهنا صرَّت أكثر انتباها وقلت:
- أكملِّي. فأردفت:
- إنها تمثل صورة من التجانس الكوني بين شيفا وهو الخالق في الهندوسية وشاكتي وهي تجسد الخالق في صورة الإله الأنثوي وترمز للتوازن بين الإنسان والخالق والتي يمكن أن نصل لها عن طريق «الموشكا» وهي حالة اليقظة التي تطفئ معها نيران كل ما يسبب لنا ألم.. مثل الشهوة والحقْد والجهل.

نظرت إليها وأنا لا أفهم أي كلمة مما تقول..
وقلت:

- أنا لا أفهم شيئاً مما تقولين! .. فابتسمت ثم
انصرفت، وجلست أنا أكمل الشاي.
تقدم أحد رواد المقهى نحوي وقال:

- على فكرة يا أستاذ .. وأنت غير منتبه ..
وضعت لك هذه السيدة قرصاً في الشاي.. نظرتُ إلى
كوب الشاي فوجدته شبه خالياً فتحسرت وقلت له
مبتسماً:

- لما لم تخبرني قبل أن أشربه !!

كان الليل قد قارب على الانتصاف وأنا لا أزال
على مقعدي.. أطلب كوب الشاي تلو الآخر في
انتظار صديقي الطبيب الذي اتصلت به ليأتيني بعد
عمله ليرى حالتي.. فقد كنت متخوفاً مما أبلغني به
الرجل بأن السيدة وضعت لي شيئاً بالشاي.. مرت
ساعتان ولم يحدث لي شيء.. بل إنني في حالة جيدة
للغاية.. ربما الرجل يمزح.. اتصلت بصديقي لكيلا
يأتي.. وبعد لحظات نظرت أمامي إلى باب موارب
بنهاية المسجد وجذبني شيء وراءه،.. نظرت مرة
أخرى.

إنها هي! .. بالتأكيد هي!.. «أم بطة».. كانت
تطل برأسها من الباب.. أشارت لي لأذهب إليها..
هزرت رأسي وهممت قائلاً:

- يبدو أن مفعول القرص بدأ يعمل!

ذهبتُ نحو الباب ودخلت إليها وقلت:

- أين كنتِ يا ست «أم بطة» وماذا تفعلين

هنا؟!

فلم ترد.. نظرت في عيني ثم وضعت يدها اليمنى
على جبهتي.. فشعرت بدوار خفيف.. وجلست على
بعض السجاجيد المتكومة داخل الحوش الصغير،
ثم نظرت في عينيها، وتهياً لي كأنني أشاهد شيئاً
داخل حدقتيها.

أشعر أنني أغوص داخل عينيها.. نعم بالفعل أنا
أغوص داخل عينيها.. أرى حولي جامع سيدي سعد
كأنه يتقشّر ويتحول لمسجد آخر بجواره مقام..
الناس تذهب وتجيئ بسرعة كبيرة.. المسجد لا زال
يتحول والناس تتغير بنفس السرعة وتتغير أشكال
ملابسهم من ملابس عصرية إلى جلابيب إلى
ملابس من العصر المملوكي.. ظلت المباني تتناقص
حول المسجد حتى تحول المكان كله بالنهاية إلى

أرض زراعية وعم الصمت.. بدا وكأنني ركبت آلة الزمن.

نظرتُ حولي فوجدت الحقول الزراعية تحيط بالمكان.. بعض الأغنام ترعى بالقرب مني.. شاهدت في الأفق عدداً كبيراً من الرجال قادمون.. بعضهم يسير على أقدامه، والبعض الآخر يركب حميراً.. يرتدون أسمالاً تشبه خرق الدراويش البالية ويحمل كل منهم عصا في طرفها (بؤجة) ملابس.. نعم إنهم دراويش بالفعل! يقودهم رجل ذو لحية كبيرة، ويلف رأسه بعمامة أما الباقين فكانوا حاسري الرأس.. توقفوا بالمرعى ونظر شيخهم يميناً ويساراً.. فجأة قفز أحدهم فوق أحد الخراف.. وفي أقل من لحظة كان قد أخرج من بين طيات ملابسه سكيناً وذبح الخروف.. وفعل مثله آخرون، جلسوا يشوون اللحم ويأكلونه ويمصصون العظم في نفس اللحظة التي جاء فيها رجل يبدو أنه الراعي فصرخ:

- يا ربي.. ماذا فعلتم بغنمي؟! فبدأ بعضهم في القهقهة ببلاهة كالمجاذيب.. وجرى أحدهم نحو الراعي وضربه على قفاه، وأعطاه الآخر شلوتاً،

فهرب الرجل نحو العزبة القريبة ، وعاد ومعه شيخ
البلد وبعض الرجال.

سأل شيخ البلد زعيمهم:

- من أنتم وماذا تريدون ؟ فأجابه الرجل وهو
عاقِدُ حاجبيه:

- أنا سيدك سعد أبو الإسعاد.. وهؤلاء هم
رجالي السطوحية.

فهم أهل العزبة إنهم من السطوحية أتباع السيد
أحمد البدوي، فقال شيخ البلد:

- هذه الأعمال ليس من شيم «السطوحية»..
فقال زعيمهم:

- اذهب يا رجل إلى حال سبيلك.. نحن سنُرابط
هنا .. همَّ شيخ البلد بالكلام، فأشار له «سعد»
بالصمت ثم صرخ فيه قائلاً:

- اذهب كي لا أسخطك قرداً.. تراجع الرجل
لما يعرفه عن قدرات السطوحية وأفعالهم العجيبة،
ولأنه وجدهم كثرة وهم قلة.

في اليوم التالي كان أهالي العزبة مجتمعون لدى
شيخها في قمة الغضب:

- لقد سُرقت بيوتنا يا شيخ البلد .. سرقت ممتلكاتنا.. وبدا الجميع في التحدث بصوت عال.. فقال أحدهم:

- لا يوجد سواهم فعل ذلك .. انه الرجل المسمى سعد أبو الإسعاد و(الميت رجل) الذين حضروا معه.. فردد الجميع: نعم لا يوجد سواهم .. أشار لهم شيخ البلد بالهدوء وأرسل يطلب سعد للمثول أمامه فوراً ومعه المئة رجل الذين حضروا معه.

دخل سعد ، فارداً كَتْفَيْهِ وعاقداً حاجبيه.. كانت هيئته تعطيه هيبة في عيون الآخرين.. فكان من يلقاه طريقه يبتعد عن طريقه.. وفي وسط الدار قال لشيخ البلد:

- ماذا تريد ؟ فحدثه الرجل عن المسروقات. فصرخ فيه سعد بشكل أثار خوف الشيخ وأردف قائلاً:

- هل تقصد أن رجالي لصوص؟! من الأفضل لك أن ترجع في كلامك.. تراجع شيخ البلد إلى وراء قليلاً ولكنه لمح بعض أهالي البلد واقفين خلف أحد جدران الدار.. يشيرون إليه بأيديهم يحمسونه لكي يتجرأ.

فحاول شيخ البلد تغليظ صوته وقال:

- نعم .. انهم رجالك .. هم الذين سرقوا أهل
البلدة.. وفي تلك اللحظة بدا «سعد» وقد جن جنونه،
وبدأ يزمجر ويتمتم بكلمات غير مفهومة واحمرت
عيناه بشكل أثار خوف شيخ البلد.

ثم أشار «سعد» بعصاه، فجاء من خلفه سَبْع
ضخم أسود اللون.. تبرز من فمه أنياب طويلة وحادة
ويقطر منها لُعاب كثيف، واتجه نحو الشيخ يزأر
بصوت يصُم الأذان.

ومن فرط هلهه.. صرخ شيخ البلد:

- ارحمني يا شيخ «سعد»، ارحمني.. من اليوم
أنا من مُريدك يا شيخ «سعد».. وسقط على الأرض
يستعطفه.

وهنا استدار «سعد» وبجواره سَبْعُه لينصرف
قائلاً:

- سأعرف من الذي أخذ مسروقاتكم
وسأعيدها لكم.

وذلك وسط دهشة الناس الذين تدافعوا إلى داخل
الدار بعد انصراف سعد وقالوا لشيخ البلد:

- ما لذي فعلته يا شيخ البلد.. لقد وقفت
مذعوراً أمام الرجل؟! ونحن اعتقدنا انك ستدافع
عن حقوقنا!

- ألم تروا السبع الذي كان سيأكلني؟

- سبع؟! لم نرى أي سبع! عار عليك يا شيخ.

ثم انصرفوا وهم يضربون كفاً على كف مما
فعله شيخهم، وجرى هو وراءهم محاولاً إبلاغهم أن
سعد وعده بإعادة المسروقات

بينما أنا مستغرق في الشيخ سعد وحكايته..
شعرت برعشة شديدة وبيد شخص تهزني بعنف..
فأفقت لأجد نفسي ملقى على الأرض.. وشخص
يوقظني قائلاً:

- كيف دخلت إلى هنا يا رجل ولماذا تنام بجوار
المراحيض؟

نظرت حولي مدهوشاً.. ثم وقفت على قدمي..
وقد راعني ما رأيته.. بل ما عشته في هذا الحلم أو
الهلوسة.. لم أعد أستوعب ما يحدث معي!، وهرولت
عائداً إلى بيتي.

في مساء اليوم التالي كان الأستاذ «حَبَّاب»
فاتحاً كتابه الكبير ونظارته فوق عينيه.. يقرأ في
الطَّلَسْم الذي سوف يفك اللغات التي تعرضنا لها..
وأنا واقف بجواره أنظر بانتباه وقال:

- لقد أنجزنا الجزء الأول من المهمة.. ولم يعد
متبقياً سوى جلب الرُّفَات^(١).. فتظرتُ له بدهشة
وقلت:

- جلب الرُّفَات؟ أي رُفَات؟
- رُفَات «يونس الأسود»
- رُفَات يونس؟! ومن أين سنأتي بها؟ فرد:
- هذه حكاية أخرى.

(١) الرُّفَات هو ما تبقى من عظام الميت بعد فترة من دفنه.

سفط الخمار

في الهاتف كنت احكي لبطة كيف أصبحت
الأمور أكثر صعوبة، فَلَكِي يُنْفَذ الطَّلَسْم يجب
الحصول على رُفَات «سيدي يونس» ووضعها في
الأطراف الست للنجمة السُداسيَّة.

فقلت: بالتأكيد تلك الرُفَات موجودة في مقام
«سيدي يونس»؟

- لا.. ليست كل الرُفَات موجودة هنا بالمدينة.
- كيف ذلك؟
- «سيدي يونس» ليس له مقاماً واحداً فقط..
- بل له ثلاثة عشر مقاماً.. ورُفَاتُه موزعة على ستة
- منهم.. كل مقام به عَظْمَةٌ من تلك الرُفَات.
- ست مقامات؟! كيف ذلك؟
- وأيضاً تلك المقامات موجودة في بلاد مختلفة.
- يااااه.. إن المسألة تزداد تعقيداً؟
- المقامات التي باسم «سيدي يونس» موجودة
- في مدن قليوب وطنطا والباжور وقرى البرانية
- وسفط الخمار.. وفي ليبيا بمدن بنغازي وطبرق

وبوعوينة و الرجمة وقرنادة.. وفي مدينة سوسه
بتونس.. ومدينة وَجْدَة بالمغرب.

- يا للهول ... هل له مقامات خارج مصر؟!
- والأصعب إنني لا أعرف من بين تلك
المقامات.. ما هي المقامات الست التي بهم رُفَاتَه؟
وهنا شَعَرَت «بطة» بإحباط شديد ، وقالت:
- أُمي لن تعود.. ودخلت في نوبة بكاء فحاولت
تهدئتها ، وأقسمت لها بأنني سأذهب إلى كل تلك
المقامات داخل وخارج مصر.

في المساء كنت مع الأستاذ «حَبَّاب» بمكتبته..
يُحَدِّثُني عن يونس الأسود فقال:

- بعدما تعلم يونس السحر الأسود.. أصبح
أكثر حرفية من معلميه حتى بلغت مهارته.. إنه
كان يظهر في أكثر من شكل وأكثر من مكان
في وقت واحد.. وقبل موته أوصى مُريدِيهِ أن يدفنوه
في أماكن مختلفة لكي لا يستطيع أحداً إيقاف
سحره.

- كنت استمع باهتمام وقلت للأستاذ «حَبَّاب»:
- لكن كيف سنعرف المقامات الست المدفون
بها رُفَات يونس؟

- اترك لي تلك المهمة.

في المساء علمت من الأستاذ «حَبَاب» أن أول ضريح سأبدأ بالبحث فيه، هو ضريح «سيدي يونس مَضِيَّها» في طنطا.. فاستغربت الاسم وقلت له:
- هل من الممكن أن نكلف شخصاً لينقب في ضريح طنطا عن الرُّفَات المطلوبة.. فرد بشيء من الحدة:

- لا يمكن.. يجب أن تُتَقَّب أنت بنفسك.. لن نثق في أن أحد سيأتينا بالرُّفَات الأصلية.. ولكنني سأقدم لك كل مساعدة لتسهيل مهمتك في كل بلد ستذهب إليها.. وسوف أساهم معك في تكاليف الأسفار.. فشكرته لنبله وكرمه.

كنت قد علمت أن «سيدي يونس مَضِيَّها» من مُرِيدِي «السيد البدوي».. وسمي بهذا الاسم لأنه عندما تكون له حاجة عند «السيد البدوي» يقول له مَضِيَّها يا يونس.

وصلتُ إلى طنطا ثم ذهبت مباشرة إلى مكان الضريح.. ولكن لدى وصولي فوجئت بالباعة يفرشون بضائعهم حول المقام.. حاولت دخوله فأوقفني أحد هؤلاء الباعة وسألني:

- إلى أين؟ فنظرت باستغراب وقلت:

- سأزور المقام!

- من أنت؟

- من أنت لتسألني؟ أليس من حقي زيارة

المقام؟!

فتجمع حولي عددٌ من الباعة، بين سين وجيم!
وعرفت أن المقام أصبح بمثابة استراحة لهؤلاء الباعة
يستريحون فيه أثناء اليوم! وعندما وجدوني مُصرّاً
على زيارته قال أحدهم:

- هل أنت من الطرق الصوفية؟ وسأل الآخر

هل أنت من الأوقاف؟ فقلت بالرد بلهجة حازمة:

- نعم أنا من الأوقاف وسأدخل المقام أو سأعود

ومعي قوة من الشرطة.. وهنا اضطروا للسماح لي
بدخوله.

كان المقام عبارة عن غرفة صغيرة قديمة..

بجدرانه الكثير من الشقوق.. وفي أحد أركانه

ضريح صغير مغطى بقماش أخضر اللون.. استغرقت

لوجود منضدة فوقها موقد شاي وكذلك مرتبة

نوم.. في الغالب يستخدمهم الباعة.. حاولت رفع

غطاء الضريح.. نظرت تحته، وبينما كنت أنظر

لاحظت العديد من العيون تتلصص ورائي وقال لي
أحدهم:

- لا تخاف يا أستاذ.. الضريح سليم لا يقترب
أحد منه.

اتصلت بالأستاذ «حَبَاب» الذي اتفق مع أحد
رجال الطرق الصوفية لمساعدتي في نبش المقام
والبحث عن الرُّفَات.. في المساء كان الباعة قد
انصرفوا فدخلنا المقام نحمل بعض المعدات.. رفعت
بسرعة غطاء الضريح وقمت بالحفر تحته.. خرجت
كمية كثيفة من الأتربة.. ظللت أحفر حتى وصلت
إلى عمق كبير، وهنا بدأت تظهر أجزاء من هيكل
عظمي.. بعضه مغطى ببقايا كفن وبعضه
مكشوف.

أصابني الخوف من المنظر ولكنني تماسكت..
قمت بإزاحة الهيكل العظمي بحثا عن العَظْمَة التي
يفترض أن «سيدي يونس» بالمنصورة خبأها في مقام
طنطا!! .. تَحَسَّست بيدي المرتعشة فاصطدمت
بشيء.. أظنها هي العَظْمَة.. هممت بجذبها ولكن!
فجأة شعرت بأسنان تطبق على يدي..

صرخت صرخة عظيمة من الألم والرعب.. جذبت
يدي وأنا ممسك بالعظمة.. فوجدت حيوان يشبه
الفأر وقد غرس أسنانه في يدي.. وفي تلك اللحظة
ضربه الصوي في بعضا على رأسه فانفك عن يدي..
صرخت متألماً، وشعرت بدوار، وأظلمت الدنيا في
عيني، وقلت للصوي:

- إنني لا أرى.. لقد أصبت بالعمى.. فرد
الصوي بلا مبالاة

- لا لم تصاب بالعمى.. لقد انقطعت الكهرباء..
وفي تلك اللحظة ظهر ضوء خافت.. ورأيته يظهر
أمامي.. كعادته ضخم الجثة.. أسود البشرة.. رأسه
تلامس السقف.. إنه «سيدي يونس».. للمرة الأولى
التي أنظر في وجهه ملياً.. كان الغضب بادياً عليه..
لم أفكر كثيراً وبكل سرعتي كنت أجري
منطلقاً من المقام تاركاً الصوي والقبر المفتوح.

في أحد مراكز السموم بالقاهرة كنت أتلقي
حقنة السعار من أثر عضه الحيوان المجهول، وأنعي
حظي الذي أوقعني في الورطة تلو الأخرى.

وفي المساء كانت «بطة» على التليفون تواسيني

وتشجعني، لقد خففت كثيراً من آلامي النفسية
والجسدية.. بعد أيام عرفت وجهتي التالية وهي
إحدى قرى المنيا.. يا له من مشوار طويل.



قام «حباب» بتجهيز سيارة بسائقها للسفر معي
إلى المنيا.. وفي ليلة السفر اتصلت بي «بطة» تخبرني
أنها ستأتي ووالدها معي! ورغم اعتراضها ولكنها
أصرت.. كان الطريق إلى القرية وعراً.. ولكن
ركوبنا في سيارة ذات دفع رباعي سهل علينا
المشوار كثيراً.

اتفقنا أن نذهب إلى المقام مباشرة دون توقف وأن
نخبر من يسألنا من الأهالي إننا مهندسون من
شركة مياه الشرب ونجري بعض المقايسات.. قبل
وصولنا القرية كان هناك رجلاً ينتظرنا على
مشارفها ليكون دليلاً لنا.. أخبرنا أن «سيدي
يونس» ليس له مقام في القرية بل هو ضريح صغير
ملحق بضريح أكبر لسيدي بشر الحافي وهو مقام
معروف بالبلدة، ثم سألني:

- هل تبحثون عن آثار يا بيه؟

فقلت له: لا .. فابتسم بخبث قائلاً:

- أنا فاهم يا بيه.. أنتم هنا من أجل الآثار.. لقد قبضت الشرطة منذ عدة أيام على تاجر معه (مساخيط) كثيرة.. فاستغربت «بطة» وقالت:
- مساخيط؟! فضحكتُ، وقلت لها:
- في الصعيد تسمى التماثيل الأثرية.. مساخيط.

وصلنا الضريح عند المغرب.. له سور قصير وباب حديدي.. تلاصقه بعض البيوت.. قررت اصطحاب الدليل لدخول المقام.. على أن تنتظرني «بطة» ووالدها مع السائق في السيارة.. دخلنا من الباب إلى صحن مفتوح يبدو كحوش المقابر.. أغلقنا الباب الحديدي وراءنا برفق وسرنا بهدوء، أشار الدليل إلى مكان الضريح وقال:

- هذا ضريح سيدي بشر الحاي في

- أين ضريح «سيدي يونس»؟

- لا أعرف مكانه.. ولكن سمعت أنه هنا

ظللت أبحث في الحوش كثيراً لم أجد هذه الضريح فاضطرت إلى الحفر في مقام سيدي بشر نفسه لعلني أجده.. بدأت بالحفر والدليل يساعطني

ولكن لم أجد أي رُفات.. أعلم أنه في السنوات الأخيرة قامت بعض الجماعات بنهب مقامات الأولياء وتخلصت من رُفاتهم بدعوى تحريم الأضرحة والمقامات.. ولكي لا يصيبني اليأس استمررت في الحفر..

وبعد أن حفرت ما يقرب من المتر في العمق وجدت لوح حجري كبير.. حاولت إزاحته بمساعدة الدليل فزحزحناه عن مكانه.. وبدأ أن وراءه فتحة.

أضأت كشاف الهاتف لأتبين تلك الفتحة فوجدت ما يشبه السرداب.. وبغفوية انعكست إضاءة الهاتف على وجه الدليل فوجدته ينظر لي بمكر وترقب.. شعرت بالرغبة منه، يبدو إنه استشعر أن بالمكان آثار قديمة.. دخلت من الفتحة وهو خلفي وسرنا في السرداب الذي يبلغ ارتفاعه نحو متر ونصف فاضطررنا للسير خافضين رؤوسنا، ولكن مع المسير بدأ سقف السرداب يعلو حتى سرنا منتصبين، في النهاية وجدت تبة صغيرة.. اقتربت منها فوجدت عليها بقايا شاهد قبر رخامي، تظهر منه كلمة "يونس"، ففهمت أنه مقام «سيدي

يونس»، فلم أضيع وقتي ونبشت أسفله.

لم أجد صعوبة كبيرة في الحصول على عَظْمَة
الرُّفَات وشعرت بسعادة كبيرة.. وبينما هي في يدي
استوقفتني وجود ما يشبه الجثث الصغيرة جدا
ملفوفة في أكفان ومتناثرة حول الرُّفَات، أمسكت
بإحداها لأتفحصها وكشفت الكفن فوجدته أحد
التمائيل الأثرية، فاندذهشت، وقبل أن اكشف عن
باقي التماثيل كان الدليل يدفعني بشيء صلب في
ظهري.. نظرت ورأيت فوجدته يوجه لي فرد
خرطوش كان يخفيه بين طيات ملابسه ويقول:

- تقدم للأمام.

- إلى أين؟! نحن في نهاية السرداب.

فأوماً برأسه، فوجدت أن السرداب يتفرع يساراً
ولانشغالي بالمقام لم انتبه لتفريعة السرداب، وسرت
ببطء فقال:

- قف هنا.. هذا مكان مناسب لكي تدفن
به.. فقلت له:

- إن معي أناس بالخارج ولن يتركوك..
فضحك قائلاً: لا تقلق.. سوف يلحقون بك..

في تلك اللحظة كان هناك حجر كبير يهوي فوق رأس الدليل.. فوجدتُ بطله وقد ضربت رأس الدليل بالحجر.. وفي أقل من لحظة كنت ممسكاً بيد الدليل منتزِعاً منه فرد الخرطوش.. وهرولت مع «بطة» داخل السرداب حتى وصلنا إلى باب حجري آخر زحزحته بصعوبة وخرجنا لنجد انفسنا في قبو منزل به سلم خشبي قصير.. صعدنا السلم فوجدنا انفسنا في صالة بيت صعيدي وسط عدد من الرجال الجالسين والذين اندهشوا لرؤيتي أنا وبطة ونظروا نحو يدي فوجدوا بإحداها التمثال وبالأخرى فرد الخرطوش فجئن جنونهم، وهنا رفعت يدي التي بها فرد الخرطوش قائلاً:

- السلام عليكم، فردوا السلام ثم دفعت «بطة» بيدي وقلت لها اجري بسرعة.. فجريت وأنا وراءها نركض خارجين من المنزل، وفي لحظات كان كل من بالمنزل يحمل سلاحاً ويطاردنا.. شعرنا بالموت قادم لا محالة.. ولكي ألهمهم قمت بقذف التمثال الأثري نحوهم، فالتقطوه بأيديهم خوفاً من سقوطه مما أخرهم قليلاً.. في تلك اللحظة رأيت سيارتنا آتية بسرعة كبيرة مقترية منّا مثيرة

عاصفة من الأتربة ، أبطأت السيارة وفتح أبو «بطة» الباب.. فدفعتُ «بطة» بيدي وسمعت صوت مدفع رشاش كادت إحدى رصاصاته أن تخترق رأسي.. فتعلقتُ بباب السيارة ودخلتها بصعوبة لتتطلق هاربة من القرية.. في السيارة تذكرت العظمة.. وقبل أن أفزع وجدتها بيد «بطة».. بعد أن التقطنا أنفاسنا سألتها:

- كيف دخلتِ إلى السرداب؟

- كنا في انتظارك بالسيارة.. فشاهدنا جمع غفير من الناس قادمون نحونا.. فطلب أبي مني أن اختبئ في المقام.. فدخلت ورأيت الحفرة وسرت وراءكم.. ابتسمتُ لشجاعتها بنت البلد الأصيلة.. ثم قلت لرفاقي: نحن بحاجة إلى الاتصال بالشرطة بخصوص مسألة التماثيل هذه.

(١٠)

من سوسة لبнгаزي



كانت وجهتي التالية هي أسهلهم.. مقام «سيدي
يونس» بالمنصورة.. لم أجد صعوبة تُذكر في دخول
المقام بعد أن قام أبو بطة باستئذان قاطنيه.. كان
الحفر سهلاً ولكن استغرقت لوجود قطعة واحدة
فقط من رُفَات «سيدي يونس» داخل المقام.. لففتها
في قطعة قماش.. وذهبت في طريقي.

قال لي الأستاذ «حَبَّاب»: لقد اقترينا من تحقيق هدفنا.. فقد أصبح معك ثلاث قطع ولم يتبق سوى ثلاث أخريات .. هيا اذهب واستعد للسفر إلى سوسة.

- سوسة؟ هل تقصد تونس؟

- نعم.

في المطار كانت «بطة» ووالدها في وداعي.. قال والدها:

- لقد حملناك مسؤولية ما حدث.. والحقيقة لا ذنب عليك .. أنا وابنتي نعفيك من أية مسؤولية تجاهنا.. ويكفيك ما مررت به.. فhezزت رأسي وقلت له :

- لقد أصبح الأمر تحت مسؤوليتي ليس فقط تجاه «أم بطة».. ولكن تجاه بلدنا كلها.. لا بد وأن أعمل على حمايتها.

ذهب أبو بطة إلى مكتب الاستعلامات، واقتربت مني «بطة» ونظرت نحوي نظرة يشوبها القلق.. بدت لي لمعة بعيونها.. هل أرى بمقلتيها دموع؟ لا ادري.. مدت يدها لتسلم عليّ، فمددت يدي، ووضعت راحة يدي الأخرى على ظهر يديها ثم تشابكت

أيدينا للحظات ثم قالت «بطة»:

- اعتني بنفسك.. خفق قلبي بشدة حتى ظننت أنه سيقفز من صدري.

ركبتُ الطائرة وسندت رأسي على الكرسي.. ثم وضعت كفي على وجهي أشم بقايا عطرها.. وقلت لنفسي: هل من الممكن أن تحبني؟! وبينما أنا مستغرق في تفكيري جاءت المضيفة لتضع أمامي وجبة الطعام.

وصلتُ إلى تونس.. لم أكن أحمل متاعاً يذكر لذا أنهيت إجراءات المطار سريعاً.. فضلت استقلال الحافلة توفيراً للنفقات.. وعلى الرغم من إغراءات تونس العاصمة وجمالها ولكن لدي مهمة لإنجازها.. فيجب أن اذهب إلى سوسة الليلة ولأترك متعة السياحة لرحلة أخرى.

استغرقت الرحلة إلى سوسة ساعتين لم أشعر بهما.. فقد تبادلت الحديث الضاحك مع معظم ركاب الحافلة الذين لم تتقطع أسئلتهم عن أحوال مصر.. لقد كان الأستاذ «حباب» كريماً عندما تكفل بحجز الفندق كمساهمة منه في رحلتي

الصعبة ، وكذلك تدبره أمر أحد الشباب الذي سيساعدني في دخول ضريح «سيدي يونس» بسوسة. وصلت الفندق الذي يقع بالقرب من رباط سوسة بمقربة من أسواق سوسة القديمة ، وهو عبارة عن قلعة وحصن يعود بناؤه إلى القرن الثامن الميلادي وهو من الآثار الإسلامية التي مازالت تحتفظ برونقها في تونس ويمتاز ببرجه الأنيق المطل على البحر والمثالي لالتقاط الصور ، فأنا من عشاق التصوير.

شربتُ قهوة الصباح في شرفة مقهى مطل على البحر ، أسندت ظهري إلى الوراء ، يااه أتمنى أن أقضى أجازة طويلة هنا وتكون «بطة» بجواري ، وبينما أنا مستغرق في تفكيري.. وجدت أمامي الشاب (راضي) الذي لم يتأخر فقد جاء في مواعده تماما ، سلمت عليه وتبادلنا الحديث ، وقال:

- لن أسألك عن سبب دخولك الضريح.. أنتم بمصر لكم أمور غريبة!،

فضحكت لكي أجامله.. ثم سرنا مسافة كبيرة حتى تعبنا من السير خاصة إنني أحمل

حقيبة كبيرة بها معدات الحفر.. ابتعدنا كثيراً عن معالم المدينة الجميلة كان يحدثني في الطريق عن هذا الضريح الذي يسمع عنه لأول مرة رغم أنه من أبناء سوسة ، وأخبرني أنه وجد صعوبة كبيرة في معرفة مكانه.

وصلنا إلى الضريح.. يا له من ضريح فقير وصغير!، المنطقة المحيطة به تبدو خالية من الناس.. لم نجد صعوبة في دخوله ، فتحنا بابه ودخلت ، ووقف راضي أمام الباب ، ولم أضيع وقتي.. بدأت في الحفر تحت الضريح الخشبي وأنا لا أشعر بأي قرف أو رهبة كما حدث من قبل فقد تعودت الأمر.. لم استغرق وقتاً طويلاً.. تحسستها بيدي.. نعم إنها هي العظمة.. أمسكت بها.. تشبه العظام التي حصلت عليها من قبل.. وضعتها في الحقيبة وعدت سريعاً إلى الفندق.. احتضنت راضي وشكرته لمساعدته القيمة ودعوته لزيارة مصر ووعدته باستضافته هناك.

في أحد المطاعم بمدينة سوسة جلست لأتناول الكُسكس التونسي.. وهو عبارة عن كسكس

حار مغطى بالخضراوات ولحم الضأن وأثناء انتظارى الطعام.. لم أجد صعوبة في عقد صداقات مع الشباب والفتيات المحيطين بي.. تبادلنا معهم النكات المصرية وفاجأني أنهم يحفظون بعضها وعملت بنصيحة كان قد أسداها لي أحد الركاب في الطائرة.. فقال لي: عندما تصل إلى تونس لا تتحدث معهم عن كرة القدم.. فيتحول الحديث لجدال لا لزوم له.. لذا فكلما سألني أحدهم عن أحوال الكرة ولاعبها بمصر اعتذرت بأنني لا أفهم في الكرة.. رغم أنني مشجع كروي عتيد.

جاء الطعام الذي أسال لعابي.. ومع أول ملعقة من الكسكس الحار.. دمعت عيني من أثر الشطة، ولكنني لم أستطع مقاومة لذة طعمه.. خفضت رأسي لأستمتع بمصمصاة الضأن، وعندما رفعتها وبعد أول قضمه من اللحم.. تجمد وجهي وتوقف الطعام في حلقِي عندما رأيته واقفاً أمام منضدتي مباشرة.

إنه الرجل الذي حاول قتلي في تلك الليلة ببيت المختلط ! أنفه منبعج ومتورم من أثر خبطة الرأس

التي أعطيتها له.. كان وجهه متجهماً كدأبه منذ
أن رأيته.. امتعضت كثيراً لرؤيته وقلت:

- لعنة الله عليك .. هل هذا وقته؟ اقترب أكثر
من المنضدة فرأيته يحمل شيئاً مخبأً داخل كيس
في يده.. يبدو أنه الساطور لم أشعر بنفسي إلا وأنا
ادفع صحن الكسكس في وجهه بكل قوتي ثم
أمسكت حقيبتني بسرعة وانطلقت راكضاً.

في المساء كنت جالساً مع راضي في منزله..
متأسفاً لإزعاجه وشاكراً له حسن ضيافته.. فقد
خشيت المبيت في الفندق.. كانت ليلة سيئة رغم
جمال الرحلة ولكن هذا قدرني لأبد وأن يحدث ما
يعكر صفوي دائماً.

في الصباح الباكر كنت في طريقي إلى مدينة
تونس لألحق بطائرتي.. في الطائرة تذكرت بأسى
طبق الكسكس بالضأن الذي لم استمتع به
بسبب هذا الرجل السخيف !

ما الذي يريده مني هؤلاء؟! ولماذا جاءوا ورائي إلى
تونس؟؟ الأسئلة تتزايد كل يوم.. ودوماً بدون
إجابة.

في المنصورة كنت أرتاح في منزلي ، واتصلت
ببطة لأطمئنتها على وصولي ونجاح مهمة تونس.. بدا
عليها الفرح الغامرة.. هممت بسؤالها عن سبب
سعادتها.. هل لوصولي سالماً أم لنجاح المهمة؟
ولكنني تراجع.

بمجرد ما أن أغلقت الخط معها.. اتصل بي
الأستاذ «حباب» ليهنئني لسلامة الوصول ويخبرني
بمكان الرفات الخامسة ومكان الرحلة الجديدة.

تغير لون وجهي وهو يحدثني وقلت:
- ماذا؟ بنغازي؟! هذا ما كنت أخشاه.

كنت أخشى السفر إلى ليبيا بشكل عام
وبنغازي بشكل خاص.. فهذه المدينة بعد أن استولى
عليها متمردو ليبيا عانت معاناة كبيرة من التدمير
والقصف والحرب الأهلية حتى تحررت بصعوبة..
ورغم ذلك فلا يمر عليها أسبوع دون حادثة أو
تفجير.

كان السفر إلى بنغازي في غاية الصعوبة فلا
يوجد طيران مباشر إلى المدينة.. لقد فكرت فيما

سيقابلني من ظروف حذرني الجميع منها.. إنها رحلة محفوفة بالمخاطر.. كان أحد معارفي كريماً عندما اقترح عليّ أن أدّعي في بنغازي إنني مُكلّف من الشركة المصرية التي يعمل بها لإنهاء بعض أعمال المقاولات والتعمير بتلك المدينة.. وأمدني ببعض المعلومات لاستخدامها عند الحاجة، كما طمأنني الأستاذ «حَبّاب» بأنه سيجري اتصالات مع العديد من معارفه ببنغازي لتسهيل مهمتي.

لا يمكن وصف المعاناة التي لاقيتها حتى وصلت إلى بنغازي، فمن مدينة إلى أخرى ومن سيارة إلى أخرى.. كأنني عدت لطرق السفر في العصور الوسطى.. وصلت المدينة على متن سيارة ربع نقل.. ودخلتها وأنا في شدة الإنهاك، في الطريق إلى الفندق راعني ما شاهدته من مشاهد الدمار في كل مكان.. يا الله! العديد من العمارات متهدمة، طلقات المدافع تخترق الجدران، هل من المعقول أن يتقاتل أهل دولة واحدة بهذه الشراسة ويحدثون ببلدهم كل هذا الدمار؟! أعلم أن بنغازي شهدت اشرس المعارك بين المتمردين. شعرت بالاكئاب مما أراه.

وأنا في طريقي للفندق، تم تفتيشي في عدة كمائن وفي كل كمين عشرات الأسئلة عن سبب زيارتي.. كان الفندق متواضعاً وليكن.. لأقضي ليلتي وأنهاي مهمتي سريعاً.. أمام الفندق جلست أتحدث مع بعض أهل البلدة.. لكل شخص منهم قصة ألم واختطاف ووجع.. ولكل بيت حوادث مفاجئة.. وكل بيت يقف في طوابير طويلة لمدة خمسة عشر ساعة حتى يحصل على ما قيمته عشرين أو ثلاثين دولاراً شهرياً.. اعتصر الألم قلبي، لم يتواصل معي أي شخص ممن أخبرني الأستاذ «حباب» أنهم سيساعدونني.. فقررت الذهاب وحدي رغم الخطر.. في بنغازي كلما سألت أحداً عن مكان «سيدي يونس» يصف لي الطريق بدقة، بعكس سوسة التي لم يكن أهلها يعرفون «سيدي يونس» ببلدتهم.. ما أن وصلت على متن سيارة نصف نقل.. أنزلني السائق.. فوجدت نفسي حائراً.. وسألته:

- أين «سيدي يونس»؟

- أنت في «سيدي يونس»!

لقد كان يقصد حي «سيدي يونس» أحد أكبر
أحياء بنغازي أما أنا فكنت اقصد مقام «سيدي
يونس».. الذي كلما سألت أحداً عن مكانه ينظر
لي باستغراب مستكراً سؤالي.. وصلت إلى مكان
المقام بعد أن قادني إليه طفل.. نظرت يميناً ويساراً
لم أر شيئاً وقلت له:

- أين المقام؟ فأشار بأصبعه.. لا أرى شيئاً
أيضاً.. فأشار مرة أخرى.. فنظرت بدهشة، وشهقت
من الصدمة.

لقد أشار الطفل إلى كومة من المخلفات المهدمة
متراكمة فوق بعضها.. إنه المقام.. لقد عرفت من
بقايا القبة الخضراء التي سقطت وسط الهدم،
فقلت له:

- هل تعرض الضريح للقصف؟

- لا

ثم أخذني إلى شاب لأشاهد عبر هاتفه.. فيديو
لعملية هدم الضريح باستخدام لودر في وقت سيطرة
المتمردين على المدينة وسط تكبيراتهم باعتباره
مخالفاً لمذهبهم!!..

أصابني الإحباط ولكنني تماسكت وسألت
الرجل:

- أين نقلوا الرُفَات؟

- لم ينقلوا شيء، لقد هدموا الضريح فوق ما
فيه.

في تلك الليلة اتفقت مع ثلاثة من الشباب للتقريب
تحت الأنقاض عن قطعة عظام من رُفَات المقام بأجر
عشرين دولاراً لكل منهم.. رفعتها إلى ثلاثين مقابل
ألا يسألوني عن سبب ما يفعلونه.. جلست بجوارهم
في الساعات الأولى من الفجر وهم ينقبون دون
جدوى حتى شعروا بالتعب والملل وهموا بإيقاف
عملهم.. وكاد اليأس يملكني حتى صاح أحدهم:
وجدتها.

أسرعت بالسير فوق كومة الأنقاض وجهت
نحوها إضاءة الهاتف.. نظرت فيها جيداً.. نعم إنها
هي العظمة.. يااه ارتحت كثيراً.. وضعت يدي فوق
كتف الشاب وقلت له: الله ينور عليك.. وفي نفس
اللحظة سمعت دَوياً شديداً أصاب أذني بالصمم
وشعرت بنفسي وسط فيضان من الأتربة المشتعلة

بالنيران كأنها جمرات من نار جهنم.. ووقعت على
الأرض فارتطمت رأسي بكومة من الأنقاض
الصلبة وغبت عن الوعي.

يحيى بن يونس

في مستشفى الجلاء بينغازي.. كنت ملقى على سرير في غرفة مزدحمة بالجرحى.. يسود المكان الهرج والمرج.. حاولت القيام من مكاني فلم أستطع.. كان رأسي مربوطاً بضمادات.. وحول يدي اليمنى جبيرة.. تحسست وجهي فشعرت بألم الحروق.. شعرت بعطش شديد، وقلت: أريد ماء.. ولكن لم يهتم أحد بطلبي.. ظللت مكاني أعاني من آلام رأسي ووجهي ويدي دون جدوى.. يا للكابوس اليقظ الذي أعيشه!

مرّ شخص أظنه طبيباً أو ممرضاً ليتفقد حالي،
أمسك بيدي وسألني:
- هل أنت بخير؟ حمداً لله على سلامتك.

طلبت منه ماء فhez رأسه وتركني.. وظللت على هذا الحال ساعات أخرى لا ماء ولا دواء. رادوني شعور بأن رحلتي مع الحياة قد أوشكت على الانتهاء.. ما هذا الذي تعرضت له؟ يبدو أن «يونس الأسود» لا يزال يمارس معي ألأعيبه.. الحوادث

تتوالى بلا توقف.. أنا لم أفقد وعيي طوال حياتي..
عندما كنت مراقباً كنت أسأل أصحابي عن
شعور الشخص عندما يغمى عليه ولكن الآن وفي
غضون أسابيع قليلة فقدت الوعي ثلاث مرات! آآآه
يا للصداع الرهيب.

- يا ناس أنجدوني بحقنة مُسَكِّن

أغمضت عيني يائساً.. وعندما فتحتها وجدت
أمامي أحد الشباب الذين ساعدوني بالتقييب أمس..
كان مُشَعَّث الشعر وبوجهه حروق بسيطة، ويمسك
بيده زجاجة ماء.. قال لي ضاحكاً: كيفك يا بطل؟
ما أن رأيته حتى تهلت أساريري وشعرت بفرحة من
لقي أخوه بعد طول غياب، فصحت بغير قليل من
المبالغة:

- حبيب قلبي.. لقد افتقدتك كثيراً.. وقبل أن
يرد، مددت يدي لأختطف منه زجاجة الماء التي
أفرغتها كلها في جوفي.

كنت أتناول كوب من الشورية الساخنة لها
رائحة شديدة الزفارة، ولكن من فرط جوعي
شعرت كأنها أجمل شوربة في أرقى مطعم.

حكى لي الشاب أن سيارة مفخخة انفجرت في السوق التجاري بالقرب منا ووصلت توابعها لنا.. وأصيبنا باحتراق خفيف في الوجه من تطاير الشظايا، ولكن أنا أصبت بجرح في رأسي وشرح في يدي نتيجة سقوطي فوق الأنقاض الصلبة.. ويمكن أن أخرج غدا، فقلت له:

- وهل من حظي تتفجر سيارة وأنا بالمدينة؟ فقال: لا مش حظك.. التفجيرات أصبحت أمراً معتاداً في بنغازي للأسف.. فأطرقت رأسي حزناً على ما آلت إليه الأمور ودعوت الله لأهل بنغازي بالسلامة وصلاح الأحوال.. وفي تلك اللحظة تذكرت العظمة فسألت الشاب عنها بلهفة.. فضحك قائلاً:

- لا تخف يا أخي.. العظمة معي.

قضيت الليل وأنا شبه مستيقظ في انتظار النهار حتى أغادر تلك المدينة الحزينة سريعاً.. وفي ظهيرة اليوم التالي.. كان الشبان الثلاثة في استقبالهم.. تأبطت أيديهم ليساعدوني على الخروج من المستشفى.. وأثناء سيري نظرت داخل أحد العنابر

المفتوحة.. فوجدته مرة أخرى.. جالساً فوق سرير..
إنه نفس الرجل الذي حاول قتلي عدة مرات.. لقد
غيرت معالم وجهه قليلاً فبالإضافة إلى انبعاج أنفه
من خبطة رأسي.. هناك ندبة فوق جبينه يبدو أنها
من أثر خبطه بطبق الكسكسي في سوسة.. التقت
عينه بعيني فخفت ولكنني تشجعت لأنني وسط
ثلاثة من الشباب.. ورغم ذلك حاولت الإسراع في
المشي هرباً منه، فقال أحد الشباب:

- لا تسرع يا أخي

وفي تلك اللحظة لمحت ساق الرجل المخيف
فوجدتها مجبرة من القدم حتى أسفل الركبة.. يبدو
أنه أصيب.. نظرت إليه ملياً.. بعد أن تأكدت أنه لا
يستطيع الحراك ابتسمت.. وأخرجت له لساني..
ومضيت في طريقي.

رحلة العودة إلى مصر كانت أسوأ سفيرة مررت
بها في حياتي، فبالإضافة إلى صعوبة الطريق عانيت
من آلام رأسي وذراعي.. ولكنني بالنهاية وصلت
المنصورة وأنا في حال يرثى له.. ذهبت من فوري إلى
مستشفى خاص لأجري فحوصات شاملة بعد إصابة
رأسي للمرة الثانية.

في اليوم التالي، علّمت «بطة» بوصولي.. فوجدتها تدخل الغرفة بسرعة.. وأنا مستلقي على السرير، وبدا على وجهها القلق البالغ.. يا لسروري وسعادتي لرؤيتها.. قالت لي بلهفة:

- ألف سلامة عليك.. ماذا حدث لك؟

- الحمد لله عُمُر الشَّقِي بقي.

وفي نفس الوقت كانت الأفكار تتلاعب برأسي أحاول طردها وأنا أقول لنفسي.. مستحيل تحبك، أكيد سبب لهفتها إنها تريد معرفة مصير العظْمة كي تستعيد أمها.. في تلك اللحظة اقتربت «بطة» من سريري ثم أمسكت بيدي وقبضت عليها.. وهنا شعرت بقلبي يختلج مرة أخرى.. وشعرت بدقاته تتسارع بصوت عال ومن فرط سعادتي قلت لنفسي في ثقة:

- أنا اعلم من البداية أنها تحبني

وهنا أخرجت من حقيبتها مصحف صغير وأنيق وأعطته لي.. قبّلتُ المصحف.. ثم أمسكتُ بيد «بطة»، وجذبتها لتقترب مني. ثم همست لها بصوت خفيض لا أعلم إن كانت سمعته أم لا؟:

- أحبك يا «بطة»

لم ترد ولكنها ابتسمت.. وكان ذلك يكفيني.

ما أن خرجت من تحت جهاز الأشعة حتى وجدت الأستاذ «حباب» واقفا بجواري يقول ضاحكاً:

- لا خوف عليك.. إن رأسك مصنوعة من الحديد.. فابتسمت وحكيت له عن الأحوال التي قابلتني في بنغازي.. فريّت على كتفي وقال:

- هيا استرد صحتك سريعاً لكي تسافر إلى بلاد المغرب.

- فخبّطُ بيدي على رأسي التي أَلتني.. يا ربي.. المغرب؟!

كانت وجهتي مدينة وَجْدَة المغربية التي تقع على حدود الجزائر.. وفيها يجب أن أتوجه إلى مقام سيدي يحيى بن يونس، فكرت كثيراً في تكاليف الرحلة التي تفوق مقدرتي.. في اليوم التالي بعلمي، جاءني أحد العمال بمظروف كبير.. وقال إن أحدهم تركه وغادر.. فتحت المظروف فوجدت به تذاكر طيران من القاهرة للدار البيضاء ومن

الدار البيضاء لَوَجْدَة وفاتورة سداد مقدماً لفندق الإقامة وبطاقة ائتمان للنفقات.. ما هذا ؟ من دفع كل هذه التكاليف التي بلغت آلاف الجنيهات؟ اتصلت بالأستاذ «حَبَاب» لأخبره بما حدث واستفسر عن قد يكون فعل ذلك؟ فاستغرب وقال إنه لا يعلم وأبلغني أنه كان ينوي المساهمة في تكاليف الرحلة كما وعدني من قبل فشكرته لكرمه البالغ وقلت له بامتنان:

- لقد غمرتني بأفضالك.

في الحقيقة لم أفكر كثيراً فيمن تكفل بالنفقات فقد كان شغلي الشاغل هو إنقاذ المدينة، واسترجاع «أم بطة» حتى لو كلفني الأمر أن أبيع كل ما أملك.

بعد رحلتين للطيران استغرقنا ما يقرب من عشر ساعات بالترانزيت.. وصلت إلى وَجْدَة في الواحدة بعد منتصف الليل.. وفي الفندق استلقيت على السرير منهكاً من تعب السفر وفي الصباح كنت في مطعم الفندق لأتناول فطوري.. واستأثرت كثيراً لتأخر النادل عني.. وما أن جاءني حتى دخلت معه

في جدال.. لم يكن ودوداً على الرغم من رُقيّ
الفندق.. فجاء مديره واعتذر وقال: هديتي لك سوف
أضيف لإفطارك خَرِينْجُو.. فقلت له في دهشة
ممزوجة بالقرف ماذا؟ خَرِينْجُو؟!

بعد دقائق كنت أستمتع بتناول الزميطة وهو
طعام مصنوع من الشعير.. والخرينجو وهو نوع من
الحلوى يشبه الدونتس.

اقترح أحد العاملين بالفندق أن استأجر موتوراً
بدلاً من ركوب التاكسي.. فهمت انه يقصد دراجة
نارية.. راقت لي الفكرة كثيراً.. وبالفعل لم أجد
صعوبة في استئجار واحدة ومعها خوذة جديدة..
كنت سعيداً وأنا أركب قيسبا للمرة الأولى منذ
سنوات طويلة، سرت بسهولة في شوارع وجدة
باستخدام خرائط جوجل.. تلك المدينة المغربية التي
عانت من حروب عديدة عبر التاريخ بسبب وقوعها
على الحدود مع الجزائر.. فقد كانت أول مدينة
احتلها الفرنسيون بالمغرب.. إنها مدينة جميلة
شوارعها متسعة ونظيفة بشكل لافت للنظر.. تتميز
منازلها بأنها لا تزيد عن أربع طوابق وهنا تحسرت.

على مدينتي التي تئن تحت وطأة الأبراج العالية

كنت أفكر في سيدي يحيى بن يونس.. هل هو ابن «سيدي يونس»؟! لا أعلم الكثير عنه، وصلت إلى الضريح الذي يقع على أطراف مقابر المدينة.. الجو صحو ومشمس للغاية، بعد رحلتي مع العديد من المقامات المهملة في مصر وتونس وليبيا.. هذه المرة الأولى التي أرى فيها ضريحاً يتم الاعتناء به، فأرضه مفروشة بالفُسيفساء^١ الأزرق والأبيض وتحيط به حديقة.

يؤمُّه العديد من الزوار والمُريدين.. ويعد من أشهر معالم المدينة وأكثرها زيارة.. ولكن ما العمل؟!

كيف سأبحث عن الرُفَات في هذا الضريح المزدهم؟! لقد كانوا يقيمون اليوم حلقة ذكر.. حضرتها وجلست وسط المنشدين، استمتعت كثيراً بتلك الحلقة.. وعرفت الكثير عن صاحب الضريح تلك الشخصية الغامضة.. فهذا الضريح يزوره المسلمون واليهود على حد سواء! بل وتنازعوا عليه طوال السنين.. فالمسلمون ينسبونه اليهم واليهود

(١) قَطَعُ صِغاراً مَلُونَةً من الرخام يُضَمُّ بعضها إلى بعض فيكوّن منها رسوم تزيّن الأرض والجدران.

يقولون أنه رجل يهودي جاء من الأندلس هرباً من
الاضطهاد.. طوال جلستي ظلت أفكر في طريقة
لكي أنقب تحت مقام سيدي يحيى بن يونس، حتى
وجدت الحل.

قضيت اليوم بأكمله في الضريح بين الأخوة
المغاربة الذين أحسنوا استقبالي.. وأكرموا وفادتي..
وأتحموني بالطعام والشراب خاصة عندما أخبرتهم
أنني جئت من مصر خصيصاً لزيارة مقام سيدي بن
يونس.

بعد أن صلينا العشاء اعتذرت بأنني سوف أدخل
الحمام ثم أغادر من بابه الخارجي.. لذلك سلمت
عليهم وودعتهم. اتجهت نحو الحمام.. حيث كان
هناك صندوق كبير يشبه صناديق السفن يضعون
فيه مهمات الضريح.. كنت عقدت العزم على
الاختباء بداخله لحين انصراف الجميع.. رفعت
غطاءه برفق.. وقفزت بداخله؛ استلقيت على ظهري..
ولأنني أخشى الأماكن الضيقة، فقد شعرت بضيق
النفس.. وبدا كأن غطاء الصندوق ينخفض نحوي
ليطبق على أنفاسي، فبدأت بالتنفس العميق حتى

علا صوتي.. شعرت بأقدام تقترب من الصندوق..
فحاولت أن أبطئ أنفاسي، ووضعت أذني على جدار
الصندوق لأسترق السمع.. وبدا أن الخطوات تبتعد..
فعدت للتنفس العميق.. وفجأة.. انفتح غطاء
الصندوق.

ظهر وجه سيدة تنظر لي بدهشة.. وقبل أن تصرخ
وضعت إصبعي على فمي وقلت لها هس.. فتحدثت
بلهجة مغربية لم أفهمها، ولكنني فهمت أنها
تسألني عما أفعله؟ قلت لها:

- أنا قادم من مصر لأوفي نذر بأن أتهجد ليلة
كاملة داخل ضريح سيدي بن يونس.. فسألتنني:

- لماذا النذر؟

- لكي أتزوج من أحبها .. فابتسمت وقالت:

- وما اسمها؟ بدون تفكير قلت:

- «بطة»

- ومن ذلك على هذا الضريح؟ فكرت في

إجابة سريعة.. وقلت لها:

- الشيخة أم خديجة المغربية.

في تلك الأثناء سمعنا خطوات آتية من خلفها..

فأغلقت السيدة غطاء الصندوق بسرعة.. وابتسمت

وهي تودعني.. فحمدت الله على سرعة بديهتي
للخروج من المأزق.. وتذكرت «بطة» فابتسمتُ
وعادت أنفاسي إلى طبيعتها.

كان الليل قد أوشك على الانتصاف.. ففتحت
غطاء الصندوق برفق وقمت.. وجدت الضريح مغلقاً
ومضاء به مصباح صغير ذو ضوء أخضر.. سرت نحو
المقام.. فرفعت عنه غطاءه ودرت حوله باحثاً عن
طريقة لنبشه.. لم يكن من الصعب تفكيك بعض
الألواح الخشبية حول المقام.. ببعض الجهد استطعت
الوصول إلى قاعه ولكن بعد أن غطاني التراب،
وجدت بالمقام عدة أكفنة ملفوفة.. بدا كأنها
خالية من الرُّفَات! بحثت داخل الحفرة يميناً ويساراً
حتى وجدت قطعة قماش ملفوف بها شيء، كان
لدي أمل أن تكون العَظْمَة داخلها، فتحتها ووجدت
بها العَظْمَة بالفعل ففرحت كثيراً ولكن تحسست
تحتها ما يشبه العملة.. إنها بالفعل عملة أثرية وتبدو
مصنوعة من سبيكة ذهبية وفضية.. قلت لنفسي
ربما لتلك القطعة أهمية.. وضعت العَظْمَة والقطعة
في جيبي وقمت بإعادة كل شيء إلى طبيعته حتى لا
يكشف الرجال الأمر في الصباح.. وعند خروجي

لمحت خلف المقام لوحة مدون بها كرامات بن
يونس.. فأخذني الفضول لقراءتها.. فقرأت بها أن بن
يونس كان من كراماته معاقبة اللصوص، وأن
اسم مدينة وَجْدَة مشتق من وجود قطاع الطرق على
أطرافها.. وبعد بناء مقامه عوقبوا جميعاً وماتوا
ميتات بشعة.. وقرأت أن كل من حاول سرقة
ضريحه أصيب بالشلل، أخذني الخوف.. وأخرجت
ما بجيبي.. نظرت للقطعة النقدية نظرة أخيرة ثم
أعدتها إلى مكانها تحت المقام.

فتحت نافذة الحمام وقفزت منها إلى خارج
الضريح.. وبعد أن مشيت ما لا يزيد عن متر.. شعرت
بخطواتي تتناقل.. كأن أحداً قد وضع أكياساً من
الرمل في قدمي.. تذكرت كرامات بن يونس..
وقلت لنفسِي: ماذا حل بي؟! هل سأصاب بالشلل؟
ماذا بعد؟ لقد أعدت القطعة الذهبية إلى مكانها..
حتى سمعت صوتاً يقول:

ولكنك سرقت العظْمَة، نظرت حولي لم أرى
أحدًا.. يبدو أن الصوت قادم من داخل رأسي،
قاومت بعنف وأنا ذاهب نحو الشجرة التي خبأت

خلفها الدراجة البخارية.. لم أعد قادراً على السير..
ولن أتخلى عن العَظْمَة.. زحفت على أطراف الأربعة
حتى وصلت للدراجة النارية، وقفت بصعوبة..
ركبتها بصعوبة أشد، أدزتها وانطلقت بها وسط
المقابر

في تلك الأثناء سمعت دَوِيَّ رياح شديدة من ورائي..
نظرت للخلف وجدت عاصفة ترابية ضخمة قادمة
نحوي.. أسرع أكثر ولكن العاصفة لحقت بي..
وبدا وكأنها تدفعني دفعاً حتى لم يعد بمقدوري
التحكم في مقوَد الدراجة.. اقتربت من بوابة المقابر
فأسرعت حتى استطعت الخروج منها في نفس
اللحظة التي كانت سيارة نقل تعبر الطريق.. ما أن
رآني سائقها حتى انحرف بشدة ليبتعد عني
فاصطدم بسور المقابر.. ونزل يسبني ويلعنني..
ولكنني كنت منطلقاً في طريق عودتي للفندق.

كانت بشائر الصباح قد اقتربت.. دخلت الفندق
وأنا مُغَبَّرُ الْوَجْهِ.. أَشَعْتُ الشَّعْرَ.. رآني رجل
الاستقبال في تلك الحال.. فسألني عما أَلَمَّ بي،
فابتسمت وقلت له الحمد لله، حادثة بسيطة..

وطلبت منه إرسال الفطُورُ إلى غرفتي في الحادية عشر، فدَوَّنَ طلبي.. وبعد أن سِرْتُ قليلاً تذكرت أمراً.. فالتفتُ نحوه وقلت:

- لا تتسى الخرينجُو.

عدت إلى مصر وأنا سعيد لإتمامي المهمة بنجاح.. وفور وصولي اتصلت ببطة لأبلغها بما حدث.. وفي المساء كنت مع الأستاذ «حَبَّاب» الذي بادرني قائلاً:

- مبروك يا بطل لإتمام مهمتك بنجاح.. لم يعد متبقياً سوى الجزء الثاني وهو تنفيذ الطلسم.

- ومتى سننفذه؟

- في نهاية الشهر العربي عندما يختفي القمر.

- ياااه.. هل سننتظر حتى نهاية الشهر؟

- لا تقلق .. لم يتبق سوى يومان.

(١٢)

دماء سوداء



في المكتبة كنت مع الأستاذ «حبّاب».. وأمامنا خريطة المدينة فوق منضدة كبيرة، وبأيدينا أقلام الرصاص.. نتفق على كيفية تنفيذ الطلسم، بدا أن الأستاذ «حبّاب» فاهم جداً لما يفعله، فقال:

- سأعلمك كيف يعمل الطلسم.. ستذهب إلى كل مكان من الأماكن الموجودة في الخريطة.. وأنت تعرفها جميعاً.

- تمام، الأماكن هي: بيت المختلط الذي رأيت به «علي الأسمر».. وبيت المختلط الذي اختفت فيه «أم بطة» والقصر الأحمر، ومقام سيدي سعد، ومقام أم الشعور، ومقام «سيدي يونس»، ثم أردف: ستذهب إلى الأماكن الخمس الأولى.. أما مقام «سيدي يونس» فسنتركه للنهاية.. وسنقوم بتوصيل هذه الأماكن ببعضها البعض على شكل نجمة سداسية كبيرة.

- وكيف ذلك؟

- ستذهب إلى كل مكان منهم وتقوم بعمل حفرة صغيرة به.. تدفن بها ورقة مكتوب فيها طلسم معين.. ثم تسكب عليها السائل الذي سأعطيه لك في زجاجة.

- ما المكتوب في تلك الورقة؟

- إنها أدعية تسهل عمل الطلسم.

- وبعد ذلك ماذا سأفعل؟

- سأخبرك في المساء.

في المساء وقفنا أمام واجهة مبنى حكومي قديم
من دور واحد ، كانت تستعمله بعض المصالح
الحكومية حتى سنوات مضت ، ولكن رُويداً رُويداً
تم هجره وإغلاقه ، وقال لي الأستاذ «حَبَاب»:

- عندما تكمل مهمتك.. سنقوم بعمل طقوس
الطلسم هنا ، وسوف أرسل معك بعض رجالي
لمساعدتك إن احتجت لهم.. ولكن لا بد وان تنفذ
أنت المهمة بيدك.

بعد منتصف ليل اليوم التالي.. شَرَعْتُ في العمل
من فوري فذهبت أولاً إلى القصر الأحمر بحي
المُخْتَلَط ، كان ضوء الشارع خافتاً.. يمر وقت طويل
قبل أن أرى شخصاً أو أكثر يسير أمامي. أحمل
بيدي حقيبة بداخلها الطلاسم وعدداً من الزجاجات
محكمة الغلق ، والتي طلب مني الأستاذ أن
أسكبها؛ زجاجة فوق كل ورقة بعد أن أدفنها في
أحد أركان المكان.. كما أحمل جاروفاً صغيراً
للحفر.

انتظرت حتى تأكدت أن المنطقة بجوار القصر
الأحمر خالية ثم تسلفت إلى داخله ، كان منظره

كئيباً للغاية.. رغم رهبتي ولكنني كنت مصمماً
على إنهاء مهمتي.. فيجب أن أعيد «أم بطة» وأنقذ
المدينة كلها من المصير المجهول.

سمعت صوت خرفشة، لم أشأ أن أضئ الهاتف
حتى لا يلاحظني أحد المارة.. واكتفيت بالإضاءة
الضعيفة الآتية من الخارج، في الغالب ما أسمعه
أصوات ققط أو فئران.. لم أهتم، فقد كنت
عبوساً وجدياً ولَدِّي عمل مهم لأنجزه.

فتشت عن مكان مناسب، فاخترته بجوار أحد
الجدران، حفرت قليلاً، وأخرجت الورقة وضعتها
في مكانها.. ثم أخرجت الزجاجاة وفتحتها، شعرت
باشمئزاز فقد كانت تفوح منها رائحة كريهة
للفاية.. يا لها من رائحة.. لقد أزكمت أنفي.. فجأة
لمحت بجواري شبح شخص يرتدي سترة سوداء
ورأسه مغطى بقلنسوة السترة.. ظهر أمامي
كَوْمُضَة الفلاش.. انزعجت من رؤيته.. دققت في
وجهه،.. إنه «سامي» صديق «عصام» الذي رأيته في
منامي و الذي سقط من برج القصر.. أمام صديقه!

ماذا يفعل هنا؟ ولكي استكشف أمر «سامي» هذا أغلقت الزجاجاة حتى لا تتسكب.. فوجدته وقد اختفى.. نظرت حولي لم أجده.. فعدت إلى عملي وفتحت الزجاجاة مرة أخرى، فظهر شبح «سامي» أمامي.. قفلت الزجاجاة وفتحتها عدة مرات بعد أن لاحظت أنه لا يظهر إلا عند قيامي بفتح الزجاجاة.

لم أعد اهتم برؤيته.. فتحت الزجاجاة وبدأت في سكب ما فيها على الورقة.

لقد كانت دماء!! .. إنها دماء سوداء، ما هذه الدماء يا أستاذ «حبّاب»؟

هزرت رأسي ضيقاً، ولكنني لا بد وأن أنهي هذا الطقس ليعمل الطلسم.. بعد أن أنهيت عملي قمت بتغطية الحفرة الصغيرة والورقة المغطاة بالدماء بكيس بلاستيك، ثم ألقيت عليهم التراب لإخفائها، ولكن ظلّ الشبح يرمقني بصمت، وأنا أبادله النظرات وجسمي مقشعر.. اغتظت من نظرة الاستكثار في عينيه، فقذفت زجاجة الدماء الفارغة نحوه، ومضيت في طريقي.

الوقت يداهمني.. فقد مرت ساعة كاملة ، ويجب أن أنهي عملي سريعاً ، هرولت نحو بيت المختلط الأول ، دخلت الشارع ، ونظرت به فوجدته هادئاً للغاية ، اقتربت من البيت ، ولكنني وجدت كل منافذه مسدودة بالطوب الأحمر ، وقفت أمامه حائراً ، وبدأت في نقب الجدار.. مضى الوقت ولم انقب إلا قليلاً وأنا أخشى من خروج أحد الجيران.. فذهبت إلى ناصية الشارع ، وناديت أحد الرجال الذين كلفهم الأستاذ «حبّاب» بمساعدتي.. فقام وزميله ، بنقب الجدار برفق ، حتى صنعوا فتحة في أسفل الباب مررت منها إلى داخل البيت.. قمت بإضاءة الهاتف ، لأفتش عن مكان مناسب لوضع الورقة به ، ولكنني في نفس الوقت كنت أبحث عن «علي الأسمر» لعلي أراه.

وجدت مكاناً مناسباً بالفعل وقمت بعمل حفرة صغيرة وضعت بها الورقة ثم فتحت زجاجة الدماء ذات الرائحة الكريهة ، لأسكبها.. وصدق حدسي.. فقد رأيت «علي الأسمر».. أغلقت الزجاجة وتوجهت نحوه فاخترقني ، نظرت للزجاجة التي بيدي ، وفتحتها ، ثم تركتها على الأرض وتوجهت نحوه ،

اختفت نظرة الخوف التي كانت بعينيه يوم قابلته
أول مرة واستبدلت بنظرة استتكار شديدة،
وضعت يدي على كتفه فدفعها بعيداً عنه، قلت له:
- كيف حالك يا عم «علي»؟ لما أنت غاضب
مني؟

لم يرد .. حاولت مرة أخرى.. فلم يرد وظلّت نظرة
الاستتكار على وجهه.. تتهدت وعدت مكاني فأنا
ليس لدي وقت.. قمت بسكب زجاجة الدماء
وتغطية الحفرة بالكيس وأهَلْتُ عليها التراب، ثم
ذهبت في طريقي إلى بيت المُخْتَلَط الآخر.

كلما اقتربت من هذا البيت كنت أشعر بقلبي
ينقبض فلي معه ذكرى سيئة، وأنا واقف على باب
البيت استعداداً لدخوله نظرت خلفي.. فلاحظت
وجود رجل قادم من بعيد حاولت تبين ملامحه.. نعم
لقد تحققت مخاوفي.. إنه الرجل الذي حاول قتلي
هنا في نفس المكان والذي يطاردني في كل مكان
أذهب إليه.. نظرت نحو يده فوجدته كالعادة
ممسكاً بساطوره.. ما الحل ووقتي ينفذ؟ هذه المرة
قررت مقاتلته

نظرت حولي فوجدت قضيب حديدي طويل..
وضعت حقيبتني بجواري ثم أمسكت بالقضيب في
وضع التأهب للقتال.. اقترب أكثر وأكثر وأنا في
شدة تحمّسي.. أنوى هذه المرة أن أؤذيه بشدة مهما
كلفني الأمر.. أصبحت المسافة بينه وبينني أمتار
قليلة.. رفعت القضيب بكلتا يداي، متأهباً لضربه
به، ولكن فجأة، انشقت الأرض عن رجال الأستاذ
«حبّاب» وأمسكا الرجل من ذراعيه بقوة مقيدتين
حركته.. وأشار لي أحدهما أن أمضي إلى مهمتي.

في أحد جدران البيت.. كنت أضع الورقة الثالثة
وأسكب الدماء كما فعلت من قبل.. وأمضي في
طريقي لاعناً هذا البيت الملعون صاحب السمعة
المخيفة.

كانت وجهتي التالية هي مقام سيدي سعد..
كانت الساعة تقترب من الثالثة صباحاً.. لم أجد
صعوبة في الدخول.. لم أدخل حرم المسجد فكيف
أسكب دماء في بيت الله؟ فقامت بحفر حفرة
صغيرة بين المسجد وحماماته وقمت بمهمتي المعتادة
فوضعت الورقة وسكبت الدماء وغطيتها.. وبينما

كنت أتسلل خارجاً.. وجدت بعض أهالي المنطقة
يمسكون بي.. وألقوا عَلَيَّ سيلاً من الأسئلة عن
سبب فتحي باب المسجد المغلق.. ودفعني بعضهم
بيده كأنني لصاً.. كان التعب قد بدا يحل عَلَيَّ،
وقلت لهم وأنا أصبح بهم:

- ابتعدوا.. لا وقت لدي .. أنا أقوم بحمايتكم
وحماية بلدكم.

فزادوا عناداً وكاد أحدهم أن يهوي بيده على
وجهي.. فأمسك بيده رجل ليمنعه، تبينت وجهه
وكان أحد رجال الأستاذ «حَبَّاب».. تَنَفَّسْتُ
الصُّعْدَاءَ، فقد وجدتني محاطاً برجال الأستاذ
«حَبَّاب» أقوياء البنية الذين ابعادوا الجمع عني،
وأشار إلي أحدهم بأن أغادر.

أسرعت في طريقي إلى وجهتي الأخرى.. مقام أم
الشُّعُور، بأحد الحوارى خلف جامع سيدي سعد.

وقفت أمام مقام أم الشُّعُور، وأنا اشعر
بالاشمئزاز لوقوفي وسط تلال القمامة التي تحيط
بالمقام.. فتحت حقيبتي وأخرجت منها عتلة حديدية
صغيرة.. وقمت بفسخ القفل المغلق به باب الضريح..

شبكت أصابعي ببعضها.. وهزتها أعلى وأسفل وأنا أفكر.. كيف سأحضر في هذا الضريح المخيف، فقد توالى على ذهني صور مراد صديق عرفان الذي ابتلعه أم الشُعُور في نفس هذا المكان.. التقطت شهيقاً عميقاً ونفخته بقوة.. رغم أن هذا المكان أسهلهم في الحفر ولكنني شعرت بالتردد.. وأنا على الباب واقفاً بين المقام والشارع، وحتى لا أدخل بجسدي داخل الضريح،

نزلت على ركبتي كانت قدماي خارج الضريح ويداي بداخله.. أمسكت بالجاروف الصغير لأحفر حفرة صغيرة بجوار الباب، وبنفس الوقت كنت ممسكاً بقاطع شديد الحدة.. بسرعة ألقيت بالورقة في الحفرة.. وبسرعة أكبر سكبت الدماء عليها.. ومن لهفتي سقطت بعض قطرات الدماء فوق يدي، وفي أقل من لحظة كانت بعض الشعرات السوداء تخرج من تحت الأرض، كانت تشبه ضفيرة البنت الصغيرة.. وفي أقل من لحظة كانت قد التفت حول رقبتني.

ألقيت بالجاروف وأمسكت الضفيرة بيد ، ويدي
الأخرى كنت أهوى بالقاطع الحاد على الضفيرة
فانقطعت ، ألقيتها أمامي ونظرت إليها.. يا اه .. إن
للضفيرة رأس وعينين جاحظتين!! ما هذا الرعب؟!

في نفس اللحظة رأيت أمامي العديد من تلك من
الضفائر تخرج من تحت الأرض كأنها نبات ينمو
بسرعه ، وقبل أن تأخذني الصدمة كان هناك من
يسحبني بقوة خارج ضريح الرعب ، كانا نفس
الرجلين اللذان ساعداني اليوم.

وقفت بعيداً ووضعت يدي على وجهي الذي تيبس
من الخوف.. يا الله ، رغم كل لحظات الرعب التي
مررت بها ، فهذه أسوأها جميعاً.

لم يعد متبقياً سوى الورقة الأخيرة ، والتي
ستوضع بمقام «سيدي يونس» نفسه ، وأخبرني
الأستاذ «حبّاب» أننا سنضعها بعد منتصف الليل
القادم قبل أن نبدأ طقوس الطلسم مباشرة .

مع النسمات الأولى للصباح.. كنت في طريقي
إلى بيتي ، دخلته وأنا في شدة الإرهاق.. نظرت إلى
المرأة بجوار الباب بعين حائرة وزائغة ، فراعني ما

رأيتـه.. لقد غزا الشيب أطراف شعري.. تحسست
بيدي الكثير من الشعرات البيضاء التي أراها لأول
مرة.. هزرت رأسي حزناً، ثم دخلت غرفتي،
واستلقيت على السرير، لأغط في النوم بملابسي
المتسخة.

استيقظت بعد أقل من ساعتين وأنا أفكر في
الأمور الغريبة التي فعلتها اليوم.. فتحت معرض
صور هاتفي.. كنت قد قمت بتصوير إحدى ورقات
الطلاسم التي وضعتها بالمناطق الخمس.. ظلت
أنظر في صورة الطلسم طويلاً.. جذب انتباهي شيء
ما، فقامت من سريري بسرعة وارتديت ملابس
وركبت سيارتي وانطلقت.

كانت تباشير الصباح قد أهلت وأنا واقف أمام مكتبة «حبّاب».. نظرت حولي فلم أر أحداً بالشارع.. قمت بتجربة المفتاح الذي كان «حبّاب» قد أعطاه لي لأغلق به المكتبة في عدم وجوده.. دخلتها ثم تسللت إلى باب الغرفة السرية وفتحت.

في ثوان كنت داخل الغرفة الصغيرة.. فتحتُ الدرفة التي بها كتاب «يونس الأسود» فوجدته مكانه.. كانت الصفحات الأولى من الكتاب تحكي حياة «سيدي يونس» في سنواته الأولى بالمنصورة وبعد ذلك اختفت باقي الصفحات إلا الصفحات الأخيرة التي كتب بها بعض الطلاسـم.. وضعتُ الكتاب مكانه ثم بحثت عن الكتاب الآخر الذي كان الأستاذ «حبّاب» يطلعني فيه عن فنون السحر وأسراره.. فوجدته في أحد الأدراج.

ظالت أفتش في صفحاته حتى وجدت نفس الكتابات الموجودة بالورقة التي صورتها! لقد تذكرت أنني أثناء تصفح كتاب الأستاذ «حبّاب»

رأيت به رسمة.. هي نفس الرسمة الموجودة على
الورقات التي دفنتها.. لذلك أتيت إلى المكتبة لأفهم
سر هذا الطلسم الذي أعطاني إياه «حبّاب».. قضيت
وقتاً طويلاً في قراءة الطلسم محاولاً فهمه، حتى
اكتشفت غرضه أخيراً !!..

يا للمصيبة !!

إن الأوراق التي وضعتها والدماء التي سكبتها
هي نوع من الأعمال السفلية يسمى (الأزْيبي).. وهو
من أخطر الأعمال التي تستخدم لاستدعاء أفراد
الجن الناري.. والجن الناري هذا ينحدر من نسل
إبليس.. ويُعد العدو الأول للإنسان.. ويتحين الفرصة
للدخول إلى عالم البشر ليؤذيهم عن طريق افتعال
المصائب للأشخاص والكوارث للمجتمع.. وينشط
هذا النوع من الجن في المجتمعات التي يغلب على
أهلها التباغض والتحاسد، والتنافس على جمع
الثروات بشتى الطرق.. وينشطون في البيئة التي
ينتشر بها المتاجرين بالدين بين الناس.. كما
ينشطون في المناطق التي يكثر بها تخريب الأرض
الزراعية وإقامة البنيان مكانها.. يا ربي.. لقد
أصبحت بيئة مدينتنا مناسبة اليوم لهؤلاء الجان.

ولكن لماذا يريد الأستاذ «حباب» استدعاءهم
!!؟ يا الله.. ما الذي فعلته؟ هل أنا الذي استدعيت
الجن الناري بيدي!!؟

طويت كتاب السحر، وشعرت باضطراب.. أنا
في حاجة إلى باقي صفحات كتاب «يونس الأسود»
لأفهم حقيقة ما يجري.. ولكن أين تلك
الصفحات!!؟

انشغلت بالبحث في أرجاء المكتبة لعلني أجد
الصفحات.. مر وقت طويل.. وأثناء تفتيشي بلا
جدوى.. وجدت كرتونة صغيرة تحت أحد دواليب
الغرفة.. سحبتها ووجدت بها بعض أعداد المجلات
القديمة.. نظرت إليها بلا اكتراث وهممت بإعادتها
إلى مكانها.. لولا أن جذبني عنوان على غلاف
إحداها.. عن قيام الجماعات الدينية بهدم عدد من
الأضرحة بالمدينة بحجة إعادة بناءها.. ثم تخلصهم
من رُفَات أصحاب المقامات.. أعدت المجلة لأكمل
بحثي ولكن في أسفل الكرتونة برزت ورقة صفراء
تشبه أوراق كتاب «سيدي يونس».. فرفعت المجلات

ووجدت تحتها مجموعة كبيرة من الأوراق المقطوعة
من صفحات أحد الكتب.

هي بالفعل.. إنها الصفحات الناقصة من كتاب
«سيدي يونس».

قبل أن أشرع في القراءة.. كنت أذكر نفسي بما
قرأته من قبل من أن «يونس الأسود» أصابته شهوة
الانتقام لاخطافه وهو طفل من بين أهله وبيعه
كعبد بمصر.. وما حدث من قتل سيده التركي
لزميله بشكل وحشي بدون أي ذنب، وكيف أن
أحد الهنود أخذه لحوش الهنود ليعلمه بعض
الطلاسم السحرية وكيف أن رجلاً أخذه لحوش
بحارة الصيادين، ليعلمه فنون السحر الأسود.. وأن
يونس شارك في تعويذة سحرية أحرقت سيده
التركي.. فرشّت الصفحات المنزوعة على المنضدة
ثم جلست على كرسي لأكمل قراءة حكاية
«سيدي يونس الأسود»:

📖 في أحد الأيام كان يونس عائداً من حَوْش
الصيادين، فقابله الرجل الهندي وقال له:

- لِمَ اَمْتَعْتَ عَنِ الْمَجِيئِ إِلَى حَوْشِ الْهِنُودِ يَا يُونُسَ؟

- أَنَا أَذْهَبُ إِلَى حَوْشِ الصَّيَادِينَ لِأَنَّهُ أَقْرَبُ لِي فَامْتَقِ وَجْهَ الْهِنْدِيِّ وَقَالَ بَدْهَشَةٌ:

- أَيُّ حَوْشٍ؟ هَلْ تَقْصِدُ حَوْشَ الْأَزْبِيِّينَ؟

- نَعَمْ

- إِيَّاكَ تَقْصِدُ إِنَّكَ تَذْهَبُ مَعَ «حَبَّابِ» الْأَزْبِيِّ؟

- نَعَمْ

- لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، هَلْ تَذْهَبُ لِتَتَعَلَّمَ

السَّحْرَ الْأَسْوَدَ مَعَ أَسْوَأِ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ؟

فَوَجَّئَ يُونُسَ مِنْ كَلَامِهِ، وَقَالَ لَهُ:

- لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّ «حَبَّابَ» رَجُلٌ مِنْكُمْ؟

- لَا يَا يُونُسَ.. «حَبَّابُ» هَذَا شَيْطَانٌ.. إِنْ الرَّسُولُ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنَعَ التَّسْمِيَةَ بِهَذَا الْأَسْمِ وَقَالَ

إِنْ «حَبَّابُ» اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الشَّيْطَانِ؟

وظَلَّ الْهِنْدِيُّ يُوَضِّحُ لِيُونُسَ أَنَّ هَذَا السَّحْرَ مُحَرَّمٌ

شَرْعاً وَمَنْ يَمْتَنِعُهُ خَرَجَ مِنَ الْمِلَّةِ، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى:

(وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ

فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ

وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ
وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ)

رد يونس: لا افهم معناه

فوضح له الهندي أن الله تعالى قد حرّم السحر..
وأن الناس لا يعلمون ذلك، ثم ربّت على كتف
يونس، وقال له:

- عُدرك أنك صغير السن.. نحن في حوش
الهنود نريد تعليمك القرآن والحديث.. وهي علوم لا
يعرفها إلا القليلين في هذا الزمان ونريد أن نعلمك
كيف تتقي شرور أصحاب السحر الأسود.

«حَبَاب» وجماعته يريدون الشر لبلادنا لأنهم
يكرهوننا.. ولكن بعض بكوات الترك يقومون
بحمايتهم.. لكي يقوموا بعمل أسحار لهم ليتخلصوا
من منافسيهم.. و«حَبَاب» وجدها فرصة لتجنيّدك
لتكون سفيراً من سفراء جهنم.. هيا يا يونس تعال
معي توضأ وصلّي واستغفر ربك.. أنت شاب يافع
وقلبك عامر بالإيمان.

ظل يونس يقضي وقت فراغه في حوش الهنود..
يتعلم منهم القرآن والحديث والفقه واللغة،

وتعلم كذلك الرقيات الشرعية التي تحمي من
شرور السحر الأسود.

وفي تلك الأثناء عِلِمَ «حَبَاب» الأَزْيَب بما حل
بيونس.. فجن جنونه.. وقرر الانتقام.

في الأيام التالية كان المصلون يعانون من كثرة
الفئران والجدآن^١ بالمساجد، وتعرض كثير منهم
للأذى من قرض الفئران وفضلات الجدآن، وعِلِمَ
الهنود بأن «حَبَاب» وراء ذلك.. فعكفوا على كتابة
طَلَسْم يحمي المساجد من تلك القوارض والطيور،
وبالفعل نجت المساجد منها.

ولكن فوجئ أهل المدينة باحتراق العديد من
أجران الغلال التي يضعون بها القمح دون سبب
مقنع الأمر الذي كاد يؤدي إلى مجاعة كبيرة
بالبلاد، فعكف الهنود مرة أخرى على كتابة
طَلَسْم لحماية تلك الأجران.. وهكذا كانت المدينة
دوماً معرضة للأذى على مدار السنين، خلالها تقدم
يونس في السن وأصبح من أبرز رجال عصره.. فقد
تسنى له تعلم الشيء ونقيضه.. فتعلم فنون السحر

(١) جمع جدّة، وهو طائرٌ من الجوارح ينقضُّ على الثّواجن والأطعمة ونحوه.

الأسود على يد «حبّاب» ورجاله، ثم تعلم القرآن والحديث والفقه والرقيات الشرعية على يد الهندي وعشيرته وعُرف عنه الكثير من الكرامات.. كان «يونس الأسود» الذي عرف فيما بعد باسم «سيدي يونس» قد تزوج من معتوقة جورجية، وأنجب منها أول أبناءه الذي أسماه عبده.

نجح «سيدي يونس» في الحد من شرور عشيرة «حبّاب» الأزيب عن طريق الرقيات الشرعية التي يكتبها.. ولكن في أحد الأيام فوجئ الناس بحدوث حالات قيء وإسهال شديدة بين أهل المدينة نتج عنها مئات الوفيات في غضون أيام قليلة.. كان وباءً فتاكاً أصاب الناس ولم يعرفوا له علاج.. وخلال أسابيع قليلة لم يخلو بيت من المنصورة إلا وتوفي فيه أحد أبناءه وعمّ الحُزن أرجاء المدينة كافة.

توافد الجميع على «سيدي يونس» ليجد لهم حلاً فقد كانوا يعلمون أن «حبّاب» الأزيب وعشيرته وراء تلك الكارثة التي أحقت بالمدينة، وظلوا يبحثون عنه بلا جدوى ولكنه قد هرب؟

ظلَّ يونس يفكر في كيفية منع هذه الكارثة ،
فكان يتهجَّد طوال الليل ويدعو الله أن يكشف
الضرَّ ويدفع البلاء ، ولكن دون جدوى.

وفي أحد الأيام أخذ ابنه (عبده) ، لتفقد المدينة
فلاحظ أمراً .. كانت مياه الترع التي يشرب منها
أبناء المدينة هي نفسها المياه التي يقضون فيها
حاجتهم.

فذهب إلى والي المدينة يطلب منه أن يأمر الناس
بعدم إلقاء الفضلات بالقرب من النيل أو الترع وأن
تدفن خارج المدينة وأن يتم حرق جثث الموتى قبل
دفنها.. وفي نفس الوقت عكفَ على كتابة طَلَسْم
ليخفف من معاناة المدينة مع تلك الكارثة.

وبالفعل في غضون أسابيع كانت حالات الإصابة
قد انخفضت بشكل كبير، حتى انتهت تماماً..
وكان ذلك سبباً في المزيد من المحبة والشهرة
لسيدي يونس من أهل البلدة والقرى المجاورة ،
وأشاع مُريدوه أنه يسافر في الليل إلى مكة والمدينة
ليصلي الفجر ويعود للمنصورة عند الضحى ، وأن
شجرة السدر المجاورة لبيته هي شجرة مباركة.

فِي تِلْكَ الْأَشْءَاءِ جَن جَنُونَ «حَبَاب» الَّذِي كَانَ
مَخْتَبِئًا فِي إِحْدَى الْقُرَى الْبَعِيدَةِ.. وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ
هَجَمَتْ عَلَيْهِ فِرْقَةٌ مِنْ أَهَالِي الْبَلَدَةِ وَاقْتَادُوهُ إِلَى
الْمَدِينَةِ يَرِيدُونَ إِعْدَامَهُ وَلَكِنْ يُونُسُ نَهَاهُمْ وَقَالَ
أَنَّهُمْ لَا يَمْتَلِكُونَ دَلِيلًا ضَدَّهُ.. فَقَامُوا بِسُلْسَلَتِهِ فِي
أَحَدِ السُّجُونِ خَارِجِ الْمَنْصُورَةِ.. وَظَلَّ بِهِ فِتْرَةٌ طَوِيلَةٌ
وَلَكِنَّهُ نَجَحَ فِي الْهَرَبِ بَعْدَ أَنْ كَتَبَ عَلَى جِدْرَانِ
السُّجْنِ قَسَمَ بِدِمَائِهِ ، يَقْسِمُ فِيهِ أَنَّهُ سَوْفَ يَنْتَقِمُ مِنْ
أَهْلِ الْمَدِينَةِ.. وَسَيَطَارِدُ يُونُسُ وَذَرِيَّتَهُ أَبَدَ الدَّهْرِ.

وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ صَحَا أَهْلُ الْمَدِينَةِ عَلَى حَرِيقِ مَفْزَعٍ
فَقَدْ اشْتَعَلَتْ النَّيْرَانُ بِالْمَدِينَةِ بِدُونِ سَبَبٍ.. وَأَصِيبُ
الْكَثِيرِ مِنَ النَّاسِ حَتَّى إِنَّهُمْ كَانُوا يَسِيرُونَ بِالشَّارِعِ
وَالنَّيْرَانِ تَأْكُلُهُمْ.. كَانَ مَشْهُدٌ مَرْعَبٌ ذَكَرَ الْجَمِيعَ
بِكَارِثَةِ الْمَوْتِ الَّتِي حَدَّثَتْ قَبْلَ سِنَوَاتٍ.

وَبَعْدَ جَهْدٍ كَبِيرٍ تَمَكَّنُوا مِنْ إِطْفَاءِ النَّيْرَانِ..
وَتَوَافَدَ النَّاسُ عَلَى «سَيِّدِي يُونُسَ» لِيَجِدَ حَلًّا،
فَاعْتَكَفَ فِي مَنْزِلِهِ أَرْبَعَةَ شُهُورٍ لَا يَلْتَقِي إِلَّا أَوْلَادَهُ..
ثُمَّ خَرَجَ يَوْمًا مُرِيدِيهِ حَامِلًا مَعَهُ مَنْحُوتَةً خَشَبِيَّةً عَلَى

شكل النُّجْمة السُّداسيَّة مكتوب عليها بعض الآيات القرآنية بأحرف صغيرة. فسأله أحد مُريدِيه:

- ما هذا يا «سيدي يونس»؟

- هذه رقية شرعية تحمي المدينة بإذن الله من شرور «حَبَاب» وعشيرته.. لقد وضعت بها عصارة علمي وخبرتي وكتبتها على الخشب وغمستها في ماء زمزم.. سأقوم بعملها على شكل طاقة وتركب فوق نوافذ المساجد في كل المدينة.. وبإذن الله ستحميها وتحمي أهلها من الأعمال السفلية.. ولكن هذا مرهون بأمر الله وبإيمان أهل البلد وبأن يأخذوا بأسباب الدين والعلم سوياً فلا يأخذون بأحدهما ويهملون الآخر.

ثم أردف: وأوصيت أولادي ومن بعدهم أحفادي.. انه كلما تقادم أحد مساجد المدينة.. وتم هدمه.. يقومون بفك تلك الرقية ويقومون بتركيبها فوق نوافذ المسجد الجديد.. وبإذن الله يحمي الله بلدنا من «حَبَاب» وعشيرته وكل من يريد لها شراً.

في هذا اليوم كان التعب بادياً على وجه يونس وقد أكلت منه السنون وشربت فاستأذنهم لينام..

وفي موعد صلاة المغرب دخل أبنائه لإيقاظه فوجدوه
قد أسلم الروح لبارئها.

في اليوم التالي كان أهل المدينة يحملون عشرات
الطاقات الخشبية التي صنعها «سيدي يونس» على
شكل النجمة السُداسية ليضعوها فوق شبابيك
مساجد المنصورة وقام أولاده بدفنه في مكان موته.

بعد وفاة «سيدي يونس».. لاحظ الناس أن أولاده
كانوا يقومون بحراسة ضريحه حراسة مشددة..
خاصة في الليل.. ظلّ هذا الأمر عدة أعوام، فقد
كان أولاد يونس يخفون عن أهل المدينة سراً.

كان يونس على علم بحيل «حباب» الأَرَب..
وأخفى على الناس أن بإمكان «حباب» إزالة
الرقيات التي وضعها «سيدي يونس» لحماية مدينته
بعد أن تُهدم المساجد وتضيع النجوم السُداسية التي
صنعها يونس.. كما يمكنه إيذاء ذرية يونس وكل
من يمت له بصلة اذا حصل على رُفَات «سيدي
يونس» ووضعها داخل رسمة نجمة داوود وقام بإجراء
أحد أعمال السحر الأسود.

لذلك فقد أوصى يونس أولاده.. بأن يقوموا بتوزيع
عظام رُفَاتِه في بلدان بعيدة عن بعضها لإخفائها عن
عيون «حَبَّاب» وعشيرته. ولكي يفشل في نشر
سحره الأسود مرة أخرى 

هنا أقفَلْتُ الكتاب والصدمة تكاد تقتلني.. يا
اللهول!! لقد تكشفت الأمور أمامي .. وقلت لنفسي
والدهشة تفرقني:

- هل من المعقول أن يفعل «حَبَّاب» كل ذلك؟!
لعنة الله عليه هذا المخادع.. هل «حَبَّاب» هذا من
شياطين الإنس أم ماذا ؟!

لقد ساعدتني الصدفة ، في كشف هذا الطلسم
فقد نسي «حَبَّاب» أو تغافل أنني اطلعت عليه من
قبل في كتابه.

(١٤)

السرداب



لا حول ولا قوة إلا بالله.. لقد ظلمت «سيدي
يونس».. وببيدي ساعدت «حبّاب» على الشر وتوهمت
أنه يساعدني لوجه الله !!!

يا الله.. لقد هُدمَت معظم المساجد والأضرحة
القديمة في مدينتي.. وبنيت مساجد جديدة في

مكانها أزيلت منها المقامات وكذلك النجمات من
أعلى نوافذ المساجد ولم يبق منها سوى النذر
اليسير!.. ما الحل؟

وبينما أنا مستغرق في تفكيري سمعت حركة
خلفي، فالتفتُ لألح «حبّاب» واقفاً بالقرب مني
يراقبني فانزعجت وجريت نحوه وأنا في شدة
الغضب.. ولكنه كان قد هرب.. أسرع نحو باب
المكتبة لفتحه ولكن يبدو أن الشيطان قد أغلقه.

ظالت أحاول أكثر من ساعة حتى استطعت
الخروج من المكتبة بمساعدة بعض الجيران،
فأسرعت بالتوجه نحو منزلي.. كنت خائفاً على
الحقيبة التي وضعت بها رُفَات «سيدي يونس»
لكيلا تقع في يد «حبّاب» .

هممت بفتح باب شقتي ولكنني فوجئت به
مفتوحا.. ركضت داخل الشقة باحثاً عن الحقيبة
ولكن بلا جدوى .. فقد اختفت !!!

في تلك اللحظة رن جرس الهاتف.. كانت المتصلة
«بطة»، فتحت الخط وقلت لها:

- مفاجأة كبيرة يا «بطة» .. لقد خُدعنا في «حبّاب».

ولكن قاطعني صوت والدها الذي رد على التليفون وهو يصرخ:

- الحقني .. «بطة» خُطفت.

- خُطفت؟! كيف ذلك؟

- أخذها «حبّاب» ورجاله بالإكراه من داخل المنزل.

بعد أن فتّشت الشرطة مكتبة «حبّاب» وكل مكان يحتمل وجوده به.. كنت انتظر ضابط المباحث أمام المبنى الحكومي المهجور بحي المُخْتَلَط...، لأوضح له إنني أشك أن «حبّاب» خطفها إلى هذا المكان لأنه سيقوم بعمل سحري خطير جداً الليلة.

نظر لي الضابط باستكبار ممزوجاً باستغراب.. ثم دخل ورجاله لتفتيش المبنى.. كان المكان خالياً إلا من بعض المكاتب الحكومية القديمة المتراسة فوق بعضها.. تغطيها الأتربة.

بحثنا في كل مكان عن أي أثر لحباب أو «بطة»
ولكن دون جدوى.

استكملنا الإجراءات في القسم ووعدنا ضابط
المباحث ببذل قصارى جهده للعثور على فاطمة.

خرجت وأنا أكاد أجن، وقد اغرورقت عيني
بالدموع حزناً على «بطة».. ألوم نفسي على ما
يحدث.. أنا السبب في خطف «بطة».. ما الحل؟
وقفت في الشارع حائراً وأنا أفكر.

يجب على «حباب» أن يقوم بإجراء طقسه
السحري الليلة أو سيضطر للانتظار حتى نهاية
الشهر العربي القادم.. أعلم أنه سيجري الطقس في
هذا المبنى الحكومي المهجور.. ولكننا فتشناه بلا
جدوى.. هل سيغير مكان إجراء الطقس.. ولكن
أين؟ فحسب طقوسه السحرية لا يمكن أن يجري
طقسه في مكان خارج النطاق المرسوم في النجمة
السُداسية.

كان الليل قد حل ولن يتبقى وقت طويل حتى
ينتصف عندما كنت واقفاً وحدي أمام المبنى
الحكومي أتأمله.. ثم قررت دخوله.

دخلتُ المبنى وأضأت الهاتف وظللت أبحث داخله
بلا جدوى.. لاحظت آثار أقدامنا في غرف المبنى..
سرت نحو المنور الذي دفعت بابه الخشبي بصعوبة،
ووقفت .. لقد كان منوراً صغيراً لا تزيد مساحته
عن تسعة أمتار وتطل عليه نوافذ بعض غرف المبنى..
نظرت للسماء التي لا يظهر بها أي أثر للقمر
المختفي اليوم.. وبينما أنا في حيرتي وجهت ضوء
الهاتف نحو أرضية المنور ولاحظت شيئاً.

هناك آثار أقدام داخل المنور.. نحن لم ندخل هذا
المنور فقد كان مغلقاً واكتفى الضابط بفحصه
من أحد شبابيك المبنى الداخلية، فمن أين أتت آثار
تلك الأقدام؟!

تتبعتها بحرص فوجدتها متجهة نحو بالوعة في
أحد أركان المنور!! كان غطاء البالوعة من
الحديد وله مفصلات.. رفعت الغطاء ونظرت
للأسفل.. لقد كانت البالوعة خالية من المياه قمت
بتوجيه الإضاءة نحو قاعها فلم أرى سوى أرضيتها..
لاحظت وجود سلم حديدي على جانب بالوعة فنزلت
منه.

أسفل البالوعة عبارة عن بئر خالي.. على أحد
أجنابه بعض الحجارة المتكومة.. نظرت بجوارها
فوجدت آثار أقدام فقامت بنقل بعض تلك الحجارة
فظهر مكانها فتحة كبيرة تكفي لدخول إنسان..
دخلت منها فوجدتني أسير في سرداب وأنا مدهوش.

على الرغم مما رأيته في الأسابيع الماضية من
غرائب تجعل أي شيء لا يدعو للدهشة ولكنني
مدهوش بالفعل لأنني لم أكن أتصور أن بمدينتي
الصاخبة التي عشت بها عمري مثل هذه السرداب
التي نراها في الأفلام.

كان السرداب ضيقا للغاية وممتلئ بالمياه
الجوفية التي جعلتني أسير والمياه تغطي جزء كبير
من أقدامي، ففي مدينتنا أينما حفرت تجد ماءً.



وصلت إلى غرفة كبيرة للغاية.. إنها كبيرة حقاً
بها أقواس دائرية من الطوب الأحمر تشبه الأقواس
الموجودة في المساجد القديمة.

هناك شموع في كل أركان الغرفة، ولكن ما
يميزها رائحة الرطوبة التي تسيطر عليها.. تلك
الرائحة تكاد تخنقني.. في منتصف أرضية الغرفة
رُسمت نجمة سداسية كبيرة بمادة النيل الزرقاء
اللون.

ذهبت نحو أحد الأقواس بالغرفة وفوجئت خلفه
بضريح صغير من الخشب.. توجهت نحوه فوجدته
مغطى بقطعة من القماش الأخضر ومطرزه ببعض
الآيات القرآنية.. ولكن ما هالني حقاً الاسم المطرز
فوق القماش.. "مقام «سيدي يونس»".

- «سيدي يونس»!!! أليس الضريح الموجود
فوق الأرض هو ضريح «سيدي يونس»؟!

في تلك اللحظة سمعت صوت أقدام آتية من جهة
السرداب فاخترأت خلف أحد الأقواس.. دخل رجلان
يحمل أحدهما حقيبتتي التي بها عظام الرفات..
قاما بوضع كل واحدة من تلك العظام داخل آنية

فخارية، ثم وزعوا الآنية على أطراف النُّجْمة السُّداسيَّة.. قررت أن أكون ذكياً.. رابط الجأش ولا أتدخل مطلقاً إلا بعد أن أضع خطة مناسبة.

وهنا سمعت خطوات أخرى قادمة من السرداب وبنصف عيني نظرت من خلف القوس إلى هؤلاء القادمين.. يا للهول.. «بطة».. «بطة».. كانت يديها مقيدة من الخلف، ويمسك رجلان بذراعيها ويسير أمامهم «حبّاب».. فلم أشعر بنفسي إلا وأنا مندفعٌ نحوها بكل قوتي صائحاً بأعلى صوتي.. «بطة».. وفي تلك اللحظة سمعتُ صوت تحطم آنية فوق رأسي وغبت عن الوعي.

أفقت ورأسي تتألم من الصداع ويدي مريوطتان من الأمام.. و «حبّاب» واقف أمامي يبتسم:

- أنت ابن حلال.. لقد سهّلت علينا المهمة.. كنت أخشى ألا ننجح في إكمالها يدونك.. هيا يا بطل.. قم وامسك الورقة والزجاجة.. وكما علمتك اسكبها في حفرة صغيرة بجوار مقام سيدك يونس.

- هل أنت مجنون؟ لن أفعل شيء وركلتهُ بقدمي وأنا جالس على الأرض.

فذهب نحو «بطة» وأمسك بشعرها ، ثم جذب رأسها إلى الخلف ومرار فوق رقبتها سكين رفيع وطويل تشبه سكاكين تقطيع الشاورما.

- سوف أمرار تلك السكين فوق رقبتها حتى تنتهي من مهمتك.

ثم بدأ بالفعل في تمرير السكين ببطء شديد محدثاً خدشاً برقبتها وسط صراخ «بطة» من الألم.. وما أن وجدت قطرة دماء صغيرة على رقبتها حتى انتفضت ممسكاً بالزجاجة بيدي المقيدة ، وهرولت نحو مقام «سيدي يونس» وقلت متأثراً:

- أعذرني يا «سيدي يونس».. ثم حفرت حفرة صغيرة وضعت بها ورقة الطلسم وفتحت الزجاجة ، وسكبتها وغطيتها بالتراب.

وهنا أمسكني رجلين وأعاداني إلى مكاني وقال «حبّاب»:

- شكراً.. انتهى دورك ولكن ربما نحتاج إليك.. هل صدّقت أنني سوف أذبح «بطة»؟ إنها غالية علينا.. ثم أردف قائلاً:

سيدك يونس وأولاده ظنوا أنهم أذكىاء..

قاموا ببناء ضريحه المعروف فوق الأرض ووضعوا به
عظمة واحدة فقط من رفاتة، أما ضريحه الأصلي
فشيدوه هنا تحت الأرض.

ثم قام بجذب «بطة» ووضعها في وسط النجمة
المرسومة على الأرض، وأجلسها أرضاً، وفي تلك
الآثناء كان رجاله يسكبون بعض الدماء فوق
العظام الست على اطراف النجمة ورجلان آخران
يقومان بسكب مادة سوداء تشبه البارود حول
النجمة المرسومة بالأرض.. كانت الروائح المنبعثة
كريهة للغاية.. رائحة شيطانية بالفعل!!

فجأة.. خرج من وراء أحد الأقواس أربعة رجال
قصار القامة.. وجوههم فاتحة اللون بشدة كأنهم
مصابون بالمهاق'.. رؤوسهم صلعاء و أجسادهم نحيلة
للغاية وعروقهم ظاهرة من وراء جلودهم.. بدا
كأنهم مرضى في المراحل الأخيرة.. يرتدون ما يشبه
الجلاليب الطويلة المصنوعة من الخيش، يحملون
بأيديهم جمجمة حيوان ضخمة للغاية تبدوا للوهلة
الأولى كجمجمة ثور، ولكنها أكبر من أي
جمجمة لحيوان رأيتها بحياتي.

(١) ويسمى البرص هو اضطراب خلقي يتميز بغياب الصباغ في الجلد والشعر والعيون

وضعوا الجمجمة وسط النُّجْمة، ثم وقف الأربعة حول «بطة»، وبدأوا يتمتعون بلغة غريبة، حاولت تبينها هل هي لغة هندية؟ أم لغة عبرية، يراقبهم «حبّاب» باهتمام.. نظرت بهلع إلى المشهد.. كانت «بطة» وسط الرجال الأربعة وكل منهم يحمل آنية فخارية في يده والتمتمة لا تتوقف.

وهنا نظرت نحو «حبّاب» وقلت له مستعطفاً:

- لماذا «بطة» ؟

فضحك وقال:

- أَلَمْ تعرف بعد ؟ فكر جيداً.

وهنا صُعِقت.. فقد فهمت على الفور ما يقصده..

وقبل أن أتكلم، كان «حبّاب» قد سبقني:

- نعم كما فهمت تماماً.. «بطة» هي حفيدة

«يونس الأسود» والطقس لن يكتمل بغير عذراء من نسله.. آن الأوان لكي نرتاح من يونس للأبد.

أشار «حبّاب» بيده فرفع أحد الرجال الأربعة إناءه وسكبه على كتفها الأيمن.. كانت دماء سوداء كريهة الرائحة.. صرخت «بطة».. فشعرت أن

صراخها يقتلني وحاولت التخلص من قيودي
وصحت بأعلى صوتي سيبوها.

في تلك الأثناء قام الرجل الثاني بسكب جرة
الدماء الثانية على كتفها الأيسر فصرخت «بطة»
من فرط الألم:

وفي تلك اللحظة سمعنا جميعاً أصوات صرخ
عالية كأنها صرخات المعذبين في أعماق الجحيم..
كان صرخاً حاداً.. مرعباً.. مخيفاً.. إنها فعلاً
أصوات الجحيم.. من حدثها توقف الرجال عن
العمل واهتزت الأواني في أيديهم.

بإشارة من «حبّاب» كانوا يستعدون لإدخال
جمجمة الحيوان في رأس «بطة» وفي تلك اللحظة
سمعت صوتاً مهيباً يرج آذاني قائلاً:

- فك قيودك يا عبد.. تلفتُ حولي لأتبين مصدر
الصوت الذي لم يتوقف وكرر: فك قيودك يا عبد.

قبل أن يهمون برفع الجمجمة كنت قد انتفضت
من مكاني وخبطُ يداي المقيدة في الطرف المدبب
لأحد الأقوس فانقطع الحبل.. وقبل أن يتبّه

الرجلان اللذان بجواري دفعتهما دفعة قوية من فرط شدتها ارتطما بالحائط كما لو أن سيارة قد صدمتهما.. تعجبتُ للقوة المفرطة التي أصابتني.

هممت بالذهاب نحو «بطة» وسط النّجمة.. ولكن في أقل من لحظة كانت النيران تتدلع على أطراف النّجمة كأن ما وضعوه حولها كان باروداً.. وقد أصبحت نّجمة نارية مشتعلة وبطة في وسطها.. كانت النيران مرتفعة للغاية وبطة محاصرة وسطها، ولم أعد أراها فقد حجبها النيران عني ولكن لا أزال اسمع صوتها وصوت «حبّاب» الذي أصبح أكثر حدة وانفعال وهو يحث رجاله على رفع الجمجمة لوضعها في رأس «بطة» التي قاومتهم بعنف.. أصابتني الحيرة ماذا افعل؟ ظللت أتمتم:

- يا رب.. ماذا أفعل لأوقف تلك الطقوس؟

وهنا تذكرت أمراً ما.. وضعت يدي داخل جيبي لأتحسس المصحف الصغير الذي لا يفارقني منذ أن أهدتني إياه «بطة» وأنا بالمستشفى.. فتحته وقرأت منه بعض الآيات ربما تفك هذه اللعنة، ولكن دون جدوى، فسمعت ضحكات «حبّاب» ورجاله

كانون يسخرون مما أفعله ثم قال:

ماذا تفعل؟ أتفعلون كل مصيبة ثم تهزولون نحو المصحف؟ يا رجل أنتم في زمن الإتجار بالدين.. لماذا إذاً عدت لكم؟ أنتم من استدعيتهموني.. تتركبون كل خطيئة ثم تقولون.. قال الله وقال الرسول.. ربكم لن يغفر لمن يتجر باسمه بقصد أو بغير قصد.. وهنا يأتي دوري أنا... أغلق المصحف يا هذا.

هزرت رأسي أسفاً وهممت بإغلاق المصحف وأنا أقول لنفسي:

- وما ذنب المساكين مثلنا؟ ليس لنا بالدنيا مغنم أو غرض ربما نكون مقصرين ولكننا مؤمنين.. يا رب لقد قلت في كتابك: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ.

ثم تساقطت دموعي فوق المصحف.. وهنا جاءني الإلهام... لقد تذكرت.. لقد تذكرت الآن

كنت قد قرأت في كتاب «سيدي يونس» عن أهم طلسم لفك سحر النجمة السداسية، لقد كان بسيطاً للغاية.. تضع مصحفاً مفتوحاً على آية قرآنيه

معينة في الطرف الأعلى من النُّجْمة ثم تقرأها بصوت عال.. ولكن ما هي الآية؟ لا أتذكرها.

وبينما أفكر وقعت عيني على مقام «سيدي يونس» الرابض أمامي فوجدت مكتوب فوقه آية قرآنية.. إنها هي الآية.. نعم لقد تذكرتها.. قرأتها بصوت مرتعش..

ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون
ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.. ثم
فتحت المصحف وأنا أرتجف لأبحث عن الآية داخل
المصحف.. ولكنني لا اعلم في أية سورة هذه الآية؟

قلبت صفحات المصحف.. وأنا اصرخ.. الآية في أية
سورة؟.. الآية في أية سورة؟ يا اارب؟ وبينما أنا في
حيرتي.. سمعت صوت «بطة» آت من وسط النُّجْمة
وهي تقول بأعلى صوتها:

- يونس.. في سورة يونس.. الآية في سورة
يوونوس

ففتحت بسرعة سورة يونس، وتوقفت عند الآية

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
(❖) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (❖) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ
اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (❖)

وجريت غير مبالياً بالنيران، ثم وضعت المصحف
فوق طرف النجمة السُداسية.. وبمجرد وضعه
سكتت الأصوات وهدأت النيران، كما لو لم
تكن مشتعلة من قبل.

أَوْلِيَاءَ اللَّهِ

أَسْرَعْتُ نحو «حَبَاب» ورجاله المسكين ببطء
فالتقت عيني بعينه.. ما هذا الرجل؟! إن عيونه
متسعة وحمراء وبوجهه شرور العالم كله كأنه
ليس «حَبَاب» الذي كان صديقي.. حاول رجال
«حَبَاب» مقاومتي.. ولكنني بقوة شديدة كنت
أعطيهم اللكمة تلو الأخرى فأسمع صوت عظامهم
وهي تتكسر.. اقتربت من «حَبَاب» وأنا محمل
بغضب الدنيا.. وفي تلك اللحظة أفلت «بطة» وفر
هارباً.. لجزء من اللحظة، وقعت في حيرة بين
مطاردته أو الاطمئنان على «بطة»، ولكنني أثرت
«بطة».

أمسكت يدها ولم أتمالك نفسي فاحتضنتها
ووضعت رأسها على صدري.. وانهمرت دموعنا سوياً.
قبضت على يد «بطة»، وخرجنا من وسط تلك
النَّجْمَةِ الملعونة ثم ركضنا داخل السرداب لنخرج
من هذا المكان ووصلنا إلى البالوعة.. وخرجنا منها
إلى الصالة متجهين نحو باب المبنى، ولكنني

فوجئت بأصوات مرعبة تأتي من الخارج كالتي سمعتها ونحن داخل القبو، ولكن بصوت أعلى، صرخ وعويل، وخيالات مشتتة أمامي.. فتحت الباب لأرى في الشارع العمومي منظر مرعب كأنه يوم القيامة.. الناس تسير بالعشرات في الشارع والنيران مشتتة بأجسادهم رجالاً ونساء وأطفال.. يصرخون بصوت كعويل الذئب.. في السماء كانت تتطاير السنة النيران وتتساقط الشهب.. إنه مشهد غير طبيعي.. كأنه كابوس.. بل هو فعلاً كابوس.

نظرتُ لبطة وتذكرتُ أمراً ما.. عدت بسرعة إلى البالوعة ونزلت منها وهرولت داخل السرداب نحو القبو.. وقمت بجمع العظام من حول النُجْمة السُداسية ووضعتها داخل مقام «سيدي يونس» وقمت بالنبش بجوار مقام «سيدي يونس»، وأخرجت الورقة الملعونة وعدت أدراجي إلى المبنى مرة أخرى.. كانت «بطة» في انتظاري.. فتحت الباب فرأيت الحياة تسير طبيعية.. تنفست الصعداء.. الحمد لله فما حدث كان من أثر اللعنة التي وضعها «حبّاب» لتخريب المدينة.

وأنا في طريقي مهرولاً نحو باقي المناطق التي وضعت بها الطلاسم اتصلت بأبو بطة لأطمئنه على ابنته ثم ذهبت نحو بيت المُخْتَلَط الأول.. فدخلت من الفتحة التي كنت قد نقبتها وفتشت عن الورقة وأخرجتها، ثم فعلت نفس الشيء في البيت الثاني وكذلك في القصر الأحمر ثم ذهبت إلى جامع سيدي سعد، ولكن عندما أتى الدور على مقام أم الشُّعُور راودني الخوف من هذا المكان.. ففتحت الباب وبسرعه قمت بنبش المكان الذي أخبات به الورقة وبعد أن أنهيت عملي ذهبت مع أبو بطة وعدد من الرجال إلى مكتبة «حَبَّاب».

بالمكتبة وجدنا شاب يجلس على المكتب الرئيسي وسألته عن «حَبَّاب».. فاستغرب وقال إن تلك المكتبة ملك الحاج رضوان وهو مريض بالمستشفى.. تركته واتجهت نحو الغرفة السرية، فتحت الباب فوجدت أمامي حوض وقاعدة تواليت ومراة، إنه حمام !! أين الغرفة السرية!!

كنا في الطريق إلى بيت «أم بطة» عندما رن جرس هاتف أبو بطة، الذي رد قائلاً:

- ماذا تقول !! أين !!

بعد أقل من نصف ساعة كنت أنا وبطة ووالدها
نهرول داخل المستشفى الدولي. واتجهنا نحو إحدى
الغرف وقالت «بطة» بلهفة:

- أين هي؟! فأشارت الممرضة لمكانها.

كانت «أم بطة» مستلقية فوق أحد أسرة
المستشفى.. هرول الجميع نحوها فاحتضنتها ابنتها
وزوجها.. ومن فرط سعادتي هرولت أيضاً
لاحتضنها، فدفعني بيدها مستغربة!
- ماذا تفعل؟!!

فضحك الجميع، وجلسنا حولها لنسألها أين
كانت؟ فقالت إنها لا تذكر أي شيء.. فسألتها:
- ما الذي تتذكرينه عن بيت المختلط والشيخ
يونس عندما أخذك معه.

- لا أتذكر شيء ولم أرى الشيخ يونس.. كل
ما أتذكره .. إنني كنت عائدة من السوق أمس
وفجأة وجدت نفسي هنا!!

- أمس يا «أم بطة»؟! أنت مختفية منذ عدة
أسابيع.

وذهبت لأسأل إدارة المستشفى كيف جاءت هنا فقالوا أن أحد الرجال قام بإحضارها.. وقال إنه وجدها مغمى عليها ، فسألتهم عن الرجل ، فأشاروا إلى أنه في استقبال المستشفى.

في الاستقبال وجدته واقفاً يتحدث مع أحد الأطباء وقد أعطاني ظهره .. وضعت يدي على كتفه لأشكره وعندما استدار أصابتني الدهشة. إنه الرجل الذي حاول قتلي.

لم أهرب هذه المرة فأمسكت به ولم اتركه.. تجمع الكل حولي.. وأقبل أبو بطة على صراخي.

بعد دقائق كنا نجلس جميعاً في غرفة «أم بطة» بالمستشفى.. أنا وبطة ووالدها والرجل الذي حاول قتلي.. اقتربت منه لأقبل رأسه للمرة الثانية وهو يحاول إبعادي قائلاً:

- لقد سامحتك يا أستاذ ولكن ابتعد عني
- كان يجب أن تُعرفني بنفسك يا شيخ حمزة.
- وهل أعطيتني فرصة؟

كان الشيخ حمزة أحد رجال رابطة المشايخ الصوفية العالمية.. ومكّلف من قبل الرابطة بتقصي لعنات «حبّاب».. وبذل قصارى جهده لتحذيري من مغبة الإنصات له.. ولكنه كان واقعاً تحت لعنة وضعها «حبّاب» تمنعه من الاقتراب مني.. وكانت وسيلته الوحيدة ليتمكن من مقابلتي هي طَلَسْم مكتوب على راية بيضاء محمولة فوق عصا.. يجب أن يرفعها ويضعها فوق رأسي.. فكنت أظنها أنا ساطوراً؛ أو جعلني «حبّاب» أتوهم ذلك حاول الشيخ حمزة السفر ورأني إلى ليبيا وتونس لكي يتمكن من تحذيري بعيداً عن أعين «حبّاب».. ولكنني كنت أصدّه دائماً.

نظرتُ إلى الندبات التي أصابت وجهه بسببي، وإلى قدمه التي أصيبت في بنغازي فشعرت بالذنب والأسى.. ذهبت نحوه للمرة الثالثة مقبلاً رأسه.. فابتعد عني خائفاً وقال:

- يا سيدي والله سامحتك.. والله سامحتك.

اتفقت مع أبو بطة والشيخ حمزة على ضرورة إغلاق السرداب وتكتم أمر مقام «سيدي يونس»

الذي ترقد رُفاته داخله في سلام، فقمنا نحن
الثلاثة بعد مجهود كبير بسد مدخل السرداب
بجدار سميك من الطوب واتفقنا على إحضار عربة
رمل كبيرة لملأ البالوعة بأكملها.

في المساء كنت أقوم بتوصيل «أم بطة» لمنزلها..
دخلوا جميعا وأنا وراءهم.. فاستغربت «أم بطة» التي
قالت لي بلهجة استتكار واضحة: ما تتفضل
لتناول الغداء معنا؟!

وقبل أن تُكمل كنت قد سبقتهم للداخل..
فهمست لابنتها:

- ما حكاية هذا المتطفل؟!

فنظرت «بطة» لي وهي تبتسم.. فقلت لأم بطة:

- ستريني معكم كثيراً إن شاء الله. فانفجرت
«بطة» ضاحكة وقالت:

- لو عرفتني يا ماما ماذا فعل من أجل أن تعودني
لن تصدقي.. تعالي احكي لك.

في اليوم التالي.. كنت في منزل «أم بطة».. لأقرأ
فاتحة «بطة»، وأطمئن أمها أنني سأحملها في
عيوني، فقالت:

- بعد ما عرفته عنك وما فعلته.. أنا على يقين أنك ستضعها بين عينيك.. ربنا يسعدكما.

شعرتُ بسعادة كبيرة لأنني خطبتُ «بطة».. هذه الفتاة هي الإنسانة الوحيدة التي استطاعت أن تملك قلبي برقتها وقوة شخصيتها قبل جمالها.. كأن هناك رباط روحي مقدس كان يربط بيننا قبل أن ألقاها.. فالأرواح جنود وبالتأكيد تلاقى أرواحنا منذ زمن بعيد.

في شرفة منزل «بطة» كنت جالساً وحدي في انتظار كوب الشاي وأنا أفكر في الألفاظ التي لا أجد لها إجابات.

فمن هو «حبّاب»؟ ومن أين جاء؟ أين اختفى؟ هل هو إنس أم جان؟! وأين اختفى علي الأسمر، ولماذا ظهر لي أنا بالذات؟!

أنا خائف على «بطة» وعائلتها فقد قرأت في كتاب «سيدي يونس» أن أحفاده هم الموكل بهم حماية المدينة.. وأن أحد أحفاده الذكور سيكون عليه مطاردة «حبّاب» حتى آخر العمر ليمنع شره..

وهل سينتهي شر «حبّاب» بالفعل؟! الأسئلة كثيرة
تكاد تفجر رأسي.

في تلك اللحظة دخلت «بطة» حاملة كوب
الشاي، وقالت:

- تخيل إنني لا أعرف اسمك بالكامل حتى
الآن.

- اسمي؟! وبدا لي أنني لا أتذكر اسمي..
بالفعل أنا لا أتذكره.. لا أتذكره مطلقاً.. استغربت
كثيراً.. ووضعت يدي في محفظتي لأخرج بطاقتي
الشخصية.. نظرتُ فيها وقد اعترتني الدهشة.

لمحت «بطة» تغير وجهي فأمسكت البطاقة لتقرأ
الاسم:

عبد الرحمن يونس عبده يونس الأسود

في الطائفة كان «حبّاب» في طريقه نحو الجنوب
متجهاً إلى أحد البلاد التي تبني لأول مرة في التاريخ
سداً على منابع النيل.

ابتسم ابتسامة مأكرة وقال ساخراً:

- لا يزال صراعنا طويل يا مصر .. فتحن

لأنزال في البداية.

«تمت»

أقدم حجة أمكن الحصول عليها لضريح «سيدي
يونس» بالمنصورة تعود إلى عام ١٨٩٧ وتبين بعض
ذرية «سيدي يونس» والأراضي التي أوقفت على
ضريحه.



ص	المحتوى
	(١) بيت المُختَلَط
	(٢) الست أم بطة
	(٣) يونس العبد
	(٤) حَوْش الهنود
	(٥) حَوْش الصيادين
	(٦) نُجْمَة داوود
	(٧) الست أم الشُّعُور
	(٨) سيدي سعد
	(٩) سَفَط الخمار
	(١٠) من سوسة لبِنغازي
	(١١) يحيى بن يونس
	(١٢) دماء سوداء
	(١٣) الأَزْيِي
	(١٤) السرداب
	(١٥) أَوْلِيَاءَ اللَّهِ

بسم الله الرحمن الرحيم

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ ۖ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ

ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ

(سورة يوسف الآية ٩٩)

بَهَا يُبَارِكُ رَبُّ الْجُنُودِ قَائِلًا:

مُبَارَكٌ شَغِي مِصْرُ

(سفر إشعياء ١٩ : ٢٥)

رقم الإيداع
٤٣١٩ لسنة ٢٠٢٠

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

طبعت النسخة الورقية في
مطبعة الإيمان